

تكوين الفكر العربي

قبل الإسلام " 4 " (*)

الدكتور رشاد محمد خليل

الفصل الثالث

الزمن كضرورة

1 - في الفعل المضارع وما شابهه :

أغلق الباب ليس فيه فعل أو زمن وإنما فيه طلب فقط، وهذا الآخر الذي توجه إليه الطلب مخير بين عدة تصرفات ، أما إلا يطلق الباب أصلا فلا يكون ثمة فعل ولا زمن ، وأما أن يطلقه الآن أو بعد وقت قصير أو طويل ، وهنا يكون الفعل شيئا آخر تعبر عنه صيغ أخرى مثل ، لم يطلق الباب ، أغلق الباب أي أن الفعل لا يعبر عنه إلا بصيغتين فقط هما صيغة المضارع وصيغة الماضي .

وإذا فالصيغتان اللتان ترتبطان بالزمن هما صيغة الماضي ، وصيغة المضارع ، وهنا يرد السؤال : أن الزمن الماضي معروف ، ولكن ما هو المضارع ؟ وأين زمان الحال والاستقبال ؟ حين حاول النحاة تقسيم الفعل في العربية لم يلتبس عليهم الفعل الماضي وزمنه ، لأنه حدث وقع ومضى وصيغته معروفة مثل قام ، وقعد ، واكل ، وشرب ، وراوا هذا الفعل يأخذ دائما صورة ثابتة مالم يتصل فقلوا انه مبني على الفتح نحو «ضرب وانطلق» مالم يتصل به واو جمع فيضم ، أو ضمير رفع متحرك فيسكن (1).

ينقسم الزمن في معظم اللغات الحية الى ثلاثة أزمنة رئيسية هي : الزمن الماضي Past ، والزمن الحاضر Present ، والزمن المستقبل Future

ولكننا نلاحظ أن الزمن في اللغة العربية ينقسم فقط الى ماض ، ومضارع ، أما الأمر فلا ندري كيف نخل في الفعل ، فهو ليس فعلا في ذاته ، وإنما هو دعوة الى فعل ، أو طلب لفعل ، أو أمر بفعل ، أو حض على فعل ، أو نهى عن فعل ، كما انه لاعلاقة له بالزمن ، فهو لا يدل على فعل أصلا حتى يرتبط بزمن ، وإن صحت التسمية فهو مشروع فعل قد يتحقق وقد لا يتحقق على الإطلاق فالطلب بكل صورته لا يحمل في طبيعته إلزاما إلا أن يكون محل الطلب قابلا للالزام أو متطوعا به أي أن تحقق الفعل رهن بإرادة المطلوب منه ، لا بإرادة الطالب ، وتخصيصهم للأمر بزمن الاستقبال لا يستند على علة ظاهرة لأن الفعل المطلوب وقوعه وزمنه لاعلاقة لهما بصيغة الأمر فتولى لآخر

(*) الجزء السابع (نشرت الأجزاء الثلاثة الأخرى باعداد المجلة).

(1) شرح ابن عقيل ص 16/1 .

الزمنية . لأن صيغة المضارع كما سبق ان بينا في الحديث عن تطور اللغة العربية اسبق من صيغة الماضي في اللغات السامية ، وأنه لابد ان يكون قد انقضى وقت طويل على صيغة المضارع قبل ان تعرف السى جوارها صيغة الماضى فلا بد من البحث عن سبب آخر لظهور هذه الصيغة التى هى بالاسماء أشبه منها بالانفعال .

- وقد نستطيع ان نتوصل الى اجابة على هذا التساؤل اذا تحدد لدينا وجه التشابه بين الاسم وصيغة المضارع ، ولقد تكلم النحويون عن أوجه الشبه بين الاسم وصيغة المضارع لكنهم في الحقيقة حدثونا عن أوجه التشابه لاعن علته ، لقد تحدثوا عن مشابهة المضارع للاسم في وقوعه موته ، وفي دخول أدوات الاسم عليه ، واحتوا المضارع بالاسم في اعرابه لهذا السبب ، وحاول ابن يعيش ان يرجع علاقة المضارع بالاسم الى كونها علاقة خاصة بالاسم نفسه لا بالزوائد المشتركة فقال : « والمراد انه ضارع الاسماء أى شابهها بما في أوله من الزوائد الأربع وهى الهزة والنون والتاء والياء نحو اقومونقومونقوم ويقوم فاعرب لذلك وليست الزوائد هى التى اوجبته له الاعراب ، وانما لما دخلت عليه جعلته على صيغة ضاربه مشابهة للاسم والمشابهة اوجبته له الاعراب » (5) ولكن لماذا قيل المضارع هذه الزوائد حتى اشبه بها الاسم ؟

لقد عقدوا وجها آخر للشبه لعله من الممكن ان يقودنا الى شىء وهو قولهم : ان المضارع يصلح لزمانى الحال والاستقبال وهو مبهم فيهما ، ان هذا القول يمكن ان يقودنا الى شىء وهو ان هناك قدرا مشتركا من قيام نوع التعلق (مجبها) هو الذى قاد الى الشبه ، فالاسم لا ينتهى تعلقه بسماءه ، وانما يستمر متعلقا في نفس الوقت بوحدات كثيرة من نوع واحد ، فمحمد اسم يحتوى على وحدات كثيرة لاحمر لها كل منها اسمها محدد وتحديده بشخص معين يحتاج الى قرائن ،

ولكنهم نظروا فوجدوا صيغة اخرى لانكاد تتحدد بزمن بعينه ، كما أنها لاتلزم صورة بعينها فهى صورة مرنة متحركة ، لم يستطيعوا ان يلزموها الحال لانها لا تختص به وحده ولم يستطيعوا ان يلزموها المستقبل لانها لا تختص به وحده ، كما وجدوا لها طابعا غريبا على طبيعة الفعل كما عرفوا صورته في الماضى ونظروا فوجدوا ان هذه الصيغة اشبه بالاسم منها بالفعل فاشتتوا لها من هذه المشابهة اسماء نسموها المضارع وقالوا « المضارع يشترك فيه الحاضر والمستقبل وسمى مضارعا لانه مضارع الاسماء بدخول السين وسوف للاستقبال (2) ولذلك قبل الاعراب كالاسماء ، وقالوا انه يشبه الاسم من جهات :

اولا انه يصلح لزمانى الحال والاستقبال وهو مبهم فيهما نحو قولك زيد سيقوم وسوف يقوم فيصير مستقبلا لا غير بدخول السين وسوف .

ثانيا انه يقع في مواقع الاسماء ويؤدى معانيها نحو قولك زيد يضرب كما تقول زيد ضارب وتقول في الصفة هذا رجل يضرب ، كما تقول هذا رجل ضارب فقد وقع الفعل هنا موقع الاسم والمعنى فيهما واحد :

ثالثا انه تدخل عليه لام التأكيد التى هى في الاصل للاسم (3) ولذلك فهو يعرب اعراب الاسماء بالرفع والنصب والجرم ما عدأ الجر لانه يتعلق بمقاصد خاصة بالاسم ولم يقل لنا النحويون لم ضارع المضارع الاسم ، (4) كما لم يقولوا لنا لماذا لم توضع صيغ ثابتة لكل من زمانى الحال والاستقبال كما وضعت صيغ ثابتة للماضى ؟

اننا لا يمكن ان نرد عدم تحديد صيغ خاصة للزمنة كما لا يمكن ان نرد مرونة صيغة المضارع ومشابهته للاسم الى عجز العرب عن تحديد الابعاد

(2) شرح المفصل لابن يعيش ج 7 ص 6

(3) نفس المصدر والصفحة

(4) نفس المصدر ج 1 ص 10 ، 11 .

(5) شرح المفصل ج 7 ص 6

والمضارع لا ينتهي نعلته بالفعل عند حد الحال فقط ،
وانما يتعداه الى الاستقبال ، كما ان تحديده بزمن
معين يحتاج الى قرائن .

لقد عرف النحويون الاسم بأنه مادل على
معنى في نفسه غير مقترن بزمن (6) ثم نظروا الى
تقسيمه من ناحية كونه جامدا ، او مشتقا ، مجردا
او مزيدا ، مذكرا او مؤنثا متقوصا او مقصورا او ممدودا
او صحيحا ، مفردا او مثنى ، او مجموعا .

وعرفوا الفعل بأنه مادل على معنى واقترن
بزمن (7) ثم قسموه الى ماضي ومضارع وامر والى
صحيح ومعتل ، والى مجرد ومزيد والى جامد
ومتصرف ، والى متعد ولازم ومن حيث بناؤه للفعل
والمفعول ومن حيث كونه مؤكدا او غير مؤكد .

فكانهم بذلك قد جردوا الاسم من الزمن
تجريدا تاما ، فوقعوا بذلك في كثير من المشاكل منها
هذه المشكلة التي نعالجها وهي مشكلة المضارع .
فهو يتجرد الاسم حقا من الزمن الى هذا الحد ؟ انهم
يذهبون في تقسيماتهم الى خلاف ذلك فهم متفقون مثلا
على ان المصدر اسم لانعل ، ومع ذلك ذهب الكوفيون
الى ان في المصدر اصلا للفعل ودليلهم على ذلك ان
المصدر يدل على زمان مطلق والفعل يدل على زمان
معين فكما ان المطلق اصل المقيد ، فكذلك المصدر
اصل للفعل « (8) فتراهم هنا لم يكتبوا بان يجعلوا
للاسم علاقة بالزمان وانما جعلوه اكثر صلة بالزمان من
الفعل لان المصدر مطلق والفعل متيد .

وهم يذهبون مثلا الى ان بعض الاسماء يجري
مجري الفعل ويقوم مقامه ، ومن ذلك اسم الفاعل . يقول
سيبويه « هذا باب اسم الفاعل الذي جرى مجرى
الفعل المضارع في المنعول وفي المعنى فاذا اردت فيه
من المعنى ما اردت في يفعل كان منونا نكرة :

وذلك في قولك هذا ضارب زيدا غدا فمعناه
وعمله هذا يضرب زيدا غدا واذا حدث عن فعل في حين
وقوعه غير منتقطع كان كذلك وذلك قولك هذا ضارب
عبد الله الساعة فمعناه وعمله مثل هذا يضرب زيدا

الساعة وكان زيد ضاربا اياك فانها يحدث ايضا عن
اتصال فعل في حين وقوعه وكان موانقا زيدا فمعناه
وعمله كقولك كان يضرب اباك ويوافق زيدا فهذا اجري
مجري الفعل المضارع في العمل والمعنى منونا (9) .

ومن ذلك ايضا الفاعل الذي بمنزلة الذي يفعل .
يقول سيبويه « هذا باب صار الفاعل فيه بمنزلة الذي
في المعنى وما يعمل فيه » وذلك قولك هذا الضارب
زيدا فصار في معنى هذا الذي ضرب زيدا وعمله
عمله (10) .

ومن ذلك المصادر التي تعمل عمل المضارع
يقول سيبويه (هذا باب من المصادر جرى مجرى الفعل
المضارع في عمله ومعناه) وذلك قولك عجبت من ضرب
زيد فمعناه يضرب زيدا (11) .

نخرج من هذا الى ان الاسم ليس مجردا من
الزمن او معزولا عنه ، وانه هو المشترك مع الفعل
فيه بصورة او باخرى وهذا وجه هام من العلاقة بين
الاثنيين ، على ان هذه الرابطة تقودنا الى مسألة بالغة
الاهمية بالنسبة لموضوعنا وهي ان الذي يشترك فيه
الاسم والفعل هو الزمن المستمر وهذا يضع ايدينا
على مفتاح العلاقة التي ربطت بين الاسم وبين الفعل
المضارع ، وقد نبه سيبويه على هذه العلاقة بطريقة
عكسية في حديثه عن اسم الفاعل في قوله فانها يحدث
ايضا عن اتصال فعل في حين وقوعه وحتى حين يشبه
الاسم الفعل في حالة الماضي فانه يشبهه من هذا الوجه
وذلك في حالة الفاعل الذي بمنزلة فعل ، فقولنا هذا
الضارب زيدا بمعنى هذا الذي ضرب زيدا ، انما ينظر
فيه هنا الى استمرار هذه الصفة من الفعل اللاصقة
بزيد فهو الذي ضرب زيدا ، وهو الذي ما يزال ضربه
زيدا حقيقة قائمة ومستمرة ، ولاجل ذلك يجوز ان يعامل
هذا الاسم الدال على الفعل الماضي معاملة الاسم الذي
جرى مجرى الفعل المضارع وذلك قولك هما الضاربا
زيد والضاربو عمرو (12) وذلك من ناحية كف النون
لقد لاحظ العرب اذن وجود علاقة زمنية قوية تربط بين
الصيغة التي تضارع الاسم وتدل على الزمن في الحال
والاستقبال وبين الاسم ، وهذه العلاقة هي علاقة

- (9) سيبويه ج 1 ص 82 .
(10) سيبويه ج 1 ص 93 .
(11) سيبويه ج 1 ص 97 .
(12) سيبويه ج 1 ص 94 .

- (6) شرح ابن عقيل ج 1 ص 4
(7) شرح ابن عقيل ج 1 ص 4
(8) الانصاف للانباري ص 145

الاستمرار في الزمن ، ولما كان الاسم قد اكتسب مرونته من هذا الاستمرار فاصبح قادرا على ان يرتبط بالزمن في مختلف حالاته الحقوا صيغة المضارع به وأجروها مجراه في الاعراب لاشتراكها معه في الاستمرار الزمني بدلالتها على الحال والاستقبال .

نستطيع اذن القول بان الاستمرار في الزمن هو الاساس الذي بنيت عليه صيغة المضارع وان هذه الصيغة تنظر فقط الى ناحية الاستمرار في الزمن لا الى الجهة فيه ، وكذلك نستطيع القول بان الانتطاع في الزمن هو الاساس الذي بنيت عليه صيغة الماضي غير منظور فيه الى الجهة ايضا .

وهذا يعنى ان العرب لم يقسموا الزمن من حيث الجهة الى ماض وحاضر ومستقبل وانما نظروا اليه من حيث الصيرورة فقسموه الى منقطع ومستمر واختاروا للزمن المنقطع صيغة ساكنة جابدة هي ما نسميه صيغة الفعل الماضى وهي صيغة تدل على الزمن المنقطع في اى جهة كان ماضيا او حاضرا او مستقبلا ، ولما كان انتطاع الزمن بالمضى اكثر وادوم غلبت هذه الصيغة على الماضى ، وكذلك لما كان استمرار الزمن يغلب ان يكون في الحاضر المستقبلى او المستقبل غلبت هذه الصيغة على الحاضر المستقبلى والمستقبل ، وقد روعى نفس اختيار الصيغة التي تدل على الزمن المستمر ان تكون صيغة مرفعة متحركة بالاعراب حتى تتلاءم مع صورة الزمن المستمر..

وللتدليل على ذلك ننظر اولا الى صيغة الزمن المنقطع وهي التي تسمى صيغة الماضي من ناحية الاستعمال فنجد انها لاتدل ابدا الا على الانتطاع بصرف النظر عن الجهة ، يقول الفند الزمانى :

صفحننا عن بنى دهل

وقلنا القوم اخوان

عنى الايام ان يرجموا

ن قوما كالذى كانوا

فلما صرح الشمر

فامسى وهو عريان

ولم يبق سوى العدوا

ن فناههم كمدانوا

مشيننا مشينة الليث

غدا! والليث غضبان (13)

فصفحننا ، وقلنا ، وصرح ، ودنا ، ومشيننا ،

هي افعال حدثت في زمن مضى منظور اليها من ناحية

انتطاع الزمن بها .

وقوله تعالى « اقتربت الساعة وانشق القمر » التمر: 1

« اقتربت للناس حسابهم » الانبياء : 1 « آتى

ابن الله فلا تستعجلوه » النحل : 1 « اذا جاء نصر

الله والفتح » النصر : 1 « انا فتحنا لك فتحا مبينا »

الفتح : 1 - فاقتربت ، وانشق ، واقتربت ، واتى ،

وجاء ، وفتحنا هي افعال سوف تحدث في زمن مقبل ،

منظور اليها من ناحية انتطاع الزمن بها فهي مستحدث

في اسرع مما يتصور وتحقق حدوثها مؤكدا كتأكد حدوث

الشيء الذي ينتطع به الزمن في الماضى .

وهناك امثلة في القرآن توضع فيها صيغة الزمن

المستمر والزمن المنقطع جنبا الى جنب مع اتصاد

الجهة مما يؤكد ان الاستمرار والانتطاع هو الهدف من

ايراد هذه الصيغ يقول الله تعالى « ويوم ينفخ في

الصور فنفزع من في السموات ومن في الارض » (14)

فكلا الفعلين سوف يحدث في جهة واحدة هي

جهة المستقبل ، ولكن احدهما وهو ينفخ اخذ صيغة

المضارع ، والثاني وهو فنفزع اخذ صيغة الماضى ،

ولا يمكن ان يكون لهذه التفرقة من سبب او دلالة الا اذا

كان منظورا اليها من ناحية الزمن ، فنظر الى النفخ

من ناحية استتالة الصوت في الزمن للتركيز على تأثيره

الرهيب وهو الفزع الذي ينتاب البشر فجأة فور النفخ

في الصور ، فاذا نظر الى الزمن من ناحية الانتطاع

فقط جاءت الصيغة في نفس الموقف في كلا الفعلين في

صورة الماضى يقول تعالى « ونفخ في الصور فصعق

من في السموات ومن في الارض » (15)

ويتضح ذلك المعنى جليا في قوله تعالى « ولقد

آتينا موسى الكتاب وطمينا من بعده بالرسول ، وآتينا

(13) حاسة ج 1 ص 54

(14) سورة النمل : 87

(15) سورة الزمر : 68

استمر من ناحية الزمن فجاء التعبير عن بلفظ تصييون،
وتقبل ، ونحكم .

وفي قول قطري بن الفجاءة :

فلقد ارانى للرماح دريلة

من عن يميني مرة واماسي

حتى خضبت بما تحدر من دسي

اكتاف سرجي او عنان لجاسي

ثم انصرفت وقد اصيبت ولم اصب

جذع البصيرة فارح الاقدام (18)

فهذه الاحداث كلها وقعت في الماضي ، وعبر
عنا نظر فيه الى انقطاع الزمن بصيغة الماضي مثل
خضبت تحدر ، انصرفت ، اصيبت وما نظر فيه الى
استمرار الزمن عبر عنه بصيغة المضارع مثل ارانى ،
وامصب . ونقطة التركيز على الاستمرار في كلا الحدين
لا تخفى ، وذلك لان استمرار تعرضه المستمر للرماح،
واستمرار سلامته مع ذلك دليل واضح على شجاعته
وجلده وشدة فتكه .

يقول النحويون ان لما ولم تنقلان الفاعل
الحاضر الى الماضي ، فلذلك تقول لم يخرج زيد
فتدخلها على لفظ المضارع والمعنى معنى الماضي
الا ترى انك تقول لم يتم زيد امسولو كان المعنى كاللفظ
لم يجز هذا كما لم يجز تصوير زيد امس وكذلك لما
بنزلة لم في الجزم قال الله تعالى (ولما يطم الله
الذين جاهدوا منكم) فجزمت كما تجزم لم (19) والسؤال
هنا هو : لماذا تنقل لما ولم الفعل الحاضر الى
الماضي اذا لم يكن هناك هدف من وراء هذا النقل ؟
ولم لا يعبر عن الماضي المنفى بصيغة الماضي المنفى
فنعقول ما خرج زيد، وما قام زيد امسوما علم الله الذين
جاهدوا منكم وهي صيغ اكثر سهولة وادق تعبيراً
عن الماضي ؟

ان هناك مطلباً آخر وراء المضي في الزمن
وهو الاستمرار فيه وهو الذي كان يقصده العرب حين
يضعون صيغة المضارع مكان صيغة الماضي فهم
لا يقصدون من (لم يخرج زيد ، ولم يتم زيد امس)

عيسى ابن مريم البنات ويهناه بروح القدس ، افلكما
جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ، ففريقا
كذبتم وفريقا تقتلون . البقرة 87 ، ...
فلا ائصال : آتينا ، وقتينا ، وايدنا ،
وجاءكم ، وتهوى ، واستكبرتم ، وكذبتم ، وتقتلون وكلها
من ناحية الجهة وقد وقعت في الماضي وجاء التعبير
فيها كلها بصيغة الماضي ما عدا اثنين جاءا بصيغة
المضارع هما : تهوى ، وتقتلون . فاذا قلنا ان تقتلون
جاءت لما تتطلبه الفاصلة القرآنية من انسجام صوتي،
وان التصد هو قتلتم كما ذهب ابراهيم انيس (16)
فلماذا عدل عن هوت نفوسكم الى تهوى ، الا ان يكون
التصد هو ابراز الاستمرار الزمني في هذين الفعلين،
خصوصاً وانه يخاطب اليهود المعاصرين للرسول
والذين لم يشتركوا طعاماً في هذه الاعمال كما نظر الى
الانقطاع في بقية الاعمال فكأنه يقول لهم علمتم كذا وكذا
وعلمنا كذا وكذا ولكن اهو اعمكم تغلبت
عليكم ، فميرة آباتكم ما تزال تسير معكم .
ونسى قولهم كذبتم وتقتلون نجد انه
لم يرق بينهما في الانقطاع والاستمرار فجعل زمن
القتل مستمراً ليركز على بشاعة هذا الجرم الذي
ارتكبهوه ، وانه اذا كان التكذيب ينصور وقومه من
الناس ، فان قتل الانبياء جريمة بشعة لا تتصور الا
من قوم وصل بهم تحكم الهوى وتحجر القلب الى اقصى
المدى واستمر ذلك منهم كانه جزء من طبيعتهم .

وبالنسبة لصيغة المضارع نجد الامر على
نفس الصورة التي وجدناها بالنسبة لصيغة الماضي ،
فيبدل المضارع على الزمن المستمر ايا كانت الجهة .

فاذا كان الفعل وقع واستمر فترة عبر عنه
بصيغة المضارع . فما وقع واستمر في الماضي وعبر
عنه بصيغة المضارع قول الشيفر الحارثي :

فلسنا كمن كاتم تصييون سلة

فنقبل ضيما او نحكم قاضيا (17)

فالفعل من ناحية الجهة وقع في الماضي
ولذلك جاء التعبير عن الجهة بلفظ كاتم ولكن الفعل

(18) حياصة ج 1 ص 31

(19) شرح المنفل لابن يعوش ج 2 ص 41

(16) من اسرار اللغة انيس 159

(17) حياصة ج 1 ص 27

وكما يطرد ذلك في القرآن الكريم يطرد ايضا في الشعر القديم .

يقول امرؤ القيس :

راى ارنبا فانقض يهوي امامه
اليها وجلاها بطرف ملتق
نظت له صوب ولا تجهدنه
فيدرك من اعلى التطاء فتزلق
فاد برن كالجزع المنفصل بينه
بجيد الغلام ذي القيص المطوق
فادركهن ثانيا من عناته
كفيت العشى الاتهب المتودق (21)

فهذه كلها احداث جرت في الماضى ، ولكن التعبير عنها جاء بصيغة الزمن المنقطع اى الماضى ، والزمن المستمر اى المضارع معا فكلبات : راى ، وانتقض ، وجلا ، وقتت ، وادبر ، وادرك ، افعال وردت بصيغة الماضى وكلبات يهوى ، تجهد ، يدرك ، وردت بصيغة المضارع مراعاة لاتقطاع الزمن او استمراره في الفعل نفسه .

وكذلك قوله :

خرجت بها تمشى تجر وراعا
على اثرنا بنيل مرط مرحل (22)

وقوله :

تمد وتبدي عن اسيل وتقى
بناظرة من وحش وجرة مفل (23)

وقوله :

اصاح ترى برقا اريك وميضه
كلخ اليدى في حبى مضلل
يضى سناه او مصا بيع راهب
امال السليط بالذبال المفل (24)

وقوله :

ومر على الفتان من نفياته
فانزل منه العصم من كل منزل

مجرد الاعلام عن وقوع الفعل في الماضى وانما التأكيد على ان (عدم الخروج وعدم القيام) قد استمر اى الماضى ، ويتضح ذلك بجلاء من صيغة الآية التى اوردها ابن يعشى وهى (ولما يعلم الله الذين جاهنوا منكم) ، فالآية تتكلم عن امتحان المؤمنين ، واختبار اسلامهم لربهم فقد ابتلاهم بالهزيمة في موقعة احد وقتل من قتل وجرح من جرح ، فحزن المسلمون فنزلت هذه الايات لتؤكد ان الايمان ليس دعوى بغير بينة ، وان الله لن يعطى صاحب الدعوى اجره حتى يؤكد بما صدقه ويعمله فقال لهم « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ، ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس . وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليحس الله الذين آمنوا ويحس الكافرين . ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » . (20) نهى كلها افعال منظور فيها الى الانتطاق والاستمرار بصرف النظر عن الجهة فهو ينهاهم عن الوهن والحزن في اى وقت . ويتضح ذلك بجلاء في قوله تعالى ان يمسسكم وهمس وكل منهما قد حدث في الماضى فقد مس القوم قرح في بدر من عام مضى وقد مسكم البلاء في احد وما تزال آثاره قائمة بكم ، وذلك ليعلم الله عليا مؤكدا صحة ايمان الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء يظنون احياء في جنته . وحين يتكلم عن الحقائق المقررة يقول لا يحب الظالمين ، فهو لم يجبه في الماضى ، ولم يجبه في اى وقت ، ثم يقول لهم ان هذا البلاء انما كان الهدف من ورائه تثبيت ايمان المؤمنين وتقويته حتى يستمر قويا صلبا ، وليهلك في الوقت نفسه الكافرين ، فهو لن يسكت عنهم ، وهزيتكم لن تستمر ، ومهما ظن الكافرون بانفسهم السلامة فمصيرهم هو الهلاك . ثم يقول لهم ام حسبتم فيعمل عن صيغة المضارع الى صيغة الماضى ليشير الى انقطاع حساباتهم بوقوع البلاء وليقول لهم ان سر انقطاع حساباتهم وخيبة املهم انما يكمن في كونهم استسوا هذا الحساب على اساس غير سليم ، فلما اراد ان يؤكد ضرورة استمرار العمل الموجب لجنته قال : « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » ، فهو اذن بلاء مستمر واختبار لا ينقطع لمجرد دعاوى الايمان ، حتى يوجب اجرها بالصدق ، بذلك قضت سنته تعالى .

(22) المعلقة

(23) المعلقة

(24) المعلقة

(20) سورة آل عمران : 142

(21) الديوان ص 173 ، ص 174

وتجاء لم يترك بها جذع نخلة
ولا أطبا الا مشيدا بجندل (25)

فكلمات خرج ، وأمال ، ومر وانزل ، وردت
بصيفة الماضي وكلمات مثل ترى ، وأرى ويضئ ،
ويترك ، وردت بصيفة المضارع مع انها كلها احداث
وقعت في الماضي وذلك مراعاة لانقطاع الزمن
واستمراره .

والامثلة على ذلك كثيرة جدا في الشعر القديم نكتفي
منها بما ذكرناه. وكذلك اذا كان الفعل قد وقع وما زال
مستمرا فانه يعبر عنه بصيغة المضارع؛ يقول جابر
ابن الشعلب الطائي :

ومن يفتقر في قومه يحمده الفنى
وان كان فيهم واسط العم مخو لا
ويزري بعقل المرء قلة ماله
وان كان اسرى من رجال واحولا
ويقول طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطنى
عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة
وما تنقص الايام والدهر ينفد (26)
وتوله :

أرى الموت اعداد النفوس ولا أرى
بعيدا غدا ما اقرب اليوم من غد (27)
وتول زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يمش
ثماتين حولا لا ابالك يسام (28)
رايت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطيء يعمر فيهم
ومن لم يصانع في امور كثيرة
يضرس بآتياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره ومن لا يتق الثبتم يشتم

ومن يك ذا فضل فيخل بفضله
على قومه يستغن عنه وينسم
ومن يوف لا يذم ومن يهد قلبه
الى مطئنت البر لا يتجمجم
ومن هاب أسباب المنايا ينلته
وان يرق أسباب السماء يسلم
ومن يجعل المعروف في غير اهله
يكن حمده فما عليه ويندم
ومن يعص اطراف الزجاج فاته
يطبع الموالي ركبت كل لهزم
ومن لم يلد عن حوضه بسلاحه
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يفتخر ي حسب عدوا صديقه
ومن لا يكرم نفسه لا يكرم (29)

في هذه الابيات نجد تفرقة واضحة - نيبا
يسمى في اللغة الانجليزية بالحقائق - تبين ما يستمر
في الزمن ، وما ينقطع استمراره فيه ، فالانفعال التي
تعبّر عن حقائق ثابتة لا تتغير بتغير الأزمان يأتي
التعبير عنها دائما بصيغة المضارع ، وكذلك يستعمل
طرفة في التعبير عنها الفعل ارى ليؤكد طبيعة الاستمرار
فيها . وهو يرى ان الموت يعتام ويصطنى في كل وقت ،
وهو يرى ان العيش ينقص وينفد في كل وقت ، وان
الموت اعداد النفوس في كل وقت .

وكذلك يرى زهير ان من يعش ثماتين عامبا
يسام ، هذه حقيقة ثابتة ومستمرة ، وهو يرى ان
المنايا من تصب تمت ، ومن تخطيء يعمر فيهم. هذه
حقائق ثابتة ومستمرة ، وهو يرى ان من لا يصانع
يضرس ، ويوطأ ، ومن يجعل المعروف من دون
عرضه يفره ، ومن لا يتق الثبتم يشتم ، ومن يك ذا
فضل فيخل يستغن عنه وينسم . وكذلك من يوف لا
يندم ، ومن يهد لا يتجمجم ومن يجعل يكن ويندم ،
ومن يعمى بطبع ، ومن لم يذم يهدم ومن لا يظلم
يظلم ، ومن يفتخر ي حسب ومن لا يكرم لا يكرم .
هذه كلها حقائق ثابتة ومستمرة جاء التعبير عنها
بصيغة المضارع المستمر ، ونلاحظ ان زهير يعدل
أحيانا عن صيغة المضارع الى الماضي حينما لا يقصد

(25) المعلقة

(26) المعلقة

(27) المعلقة

(28) المعلقة

(29) المعلقة

سأنصره ان كان للحق تابعاً
وان جار لم يكثر على التعطف (32)

فكلمات سأنصره وجار ، ويكثر انفعال سوف
تقع في المستقبل ومع ذلك وقع التعبير عنها بصيغتي
الماضي والمضارع مراعاة لانقطاع الزمن واستمراره ،
فهو سينصره ولن يتوقف عن نصره ، وان جار. ولم
يركز الشاعر في هذا الفعل على استمرار الزمن لانه
يقصد الى مجرد وقوع الفعل وهو الجور ، ولذلك
استعمل فعلا يدل على مجرد وقوع الحدث ثم عاد
فركز على استمرار الزمن في المضارع المنفي بلم تأكيدا
على انه لن ينفك عن التعاطف معه وان جار .

ويقول النابغة :

فانك سوف تحلم او قاهسى

اذا ما شبت او شاب الغراب (33)

فكلمات تحلم او تنهى يتعلق وقوعها
واستمرارها في المستقبل بوقوع انفعال تسبقها
هي شبت وشاب ، ومع ان الانفعال كلها يفترض
وقوعها في جهة واحدة هي المستقبل الا ان الشاعر
نظر في بعضها الى استمرار الفعل فجاء بها بصيغة
المضارع وهي تحلم وتنهى ، بينما نظر في بعضها الى
مجرد الوقوع فقط وهي شبت وشاب فجاء بها بصيغة
الماضي ، وما يؤكد هذا الادعاء ويقويه ان الانفعال
التي جاء بها الشاعر بصيغة الماضي هي بطبيعتها
انفعال استمرارية لان الشيب اذا وقع لازم صاحبه
واستمر معه طول حياته ، ومع ذلك جاء الشاعر بهذا
الفعل شاب وشبت بصيغة الماضي لانه لا يريد ان
يؤكد استمرار الشيب بصاحبه وانما يشير الى مجرد
حدوثه فقط .

ومن ذلك قول زهير :

سيأتي آل حصن حيث كانوا

من الثلاث باتية ثناء (34)

فكلمتا سيأتي وكانوا فعلا يتحدان في الجهة
وهي المستقبل ومع ذلك جاءت احدهما بصيغة
المضارع والثانية بصيغة الماضي .

الى تأكيد الاستمرار . كما جاء في قوله سئمت ، وهاب
وذلك لانه لم يقصد الى التركيز على استطالة زمن
السأم او الهيبة ، وانما قصد الى بيان وقوعها فقط
بالنسبة اليه ، ولذلك حين اراد ان يبينه الى ملازمة السأم
عاد الى استعمال صيغة المضارع فقال بسام ، وكذلك
الحال في بقية انفعال المضارع التي تدل على حقائق
ثابتة مثل يجعل ، يفر ، يضرى ، يصانع يتق ،
يشتم ، .. الخ .

والامثلة على ذلك في الشعر القديم لا تحصى .
فاذا اريد التعبير عن حدث سيقع ويستمر
في المستقبل جاء التعبير عنه ايضا بصيغة المضارع ،
يقول عمر بن ماس :

فان كنت منى او تريدن صحبتى

فكونى له كالسمن ريت له الادم

وان كنت تهوين الفراق ظميتى

فكونى له كالذئب ضاعت له الغنم (30)

فنى تريدن وتهوين انفعال مستمع في الحال
ومتستمر في المستقبل جاء التعبير عنها بصيغة المضارع
مراعاة للاستمرار في الزمن .

ويقول طرفة في معلقته :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلا

ويأتيك بالاخبار من لم تزود

ويأتيك بالاخبار من لم تبع له

نباتا ولم تضرب له حين موعد (31)

فكلمات ستبدي ، ويأتيك تشير الى انفعال
ستمع في المستقبل على سبيل الحتم بالنسبة لشخص
لا يثق في احتمال ذلك او في امكانه وهو المخاطب
بهذه الايات ايا كان .

وسيظل وقوعها محتما لانها من حقائق الحياة
التي اشرفنا اليها فيما سبق - وان روعى فيها توجيه
الخطاب للمستقبل مراعاة لحال الشخص الذي لم
يجرب نوع هذه الاحداث بعد ، ويقول حاتم الطائي :

(30) حماسة 24/1

(31) معلقة

(32) الديوان ص 42

(33) مختار ص 120

(34) مختار ص 193

ومنه قول البثلم بن رياح بن ظلم المري :

ساكفيك جنبى وضمه ووساده
واقضب أن لم تعط بالحق اشجما (35)

فكلمات ساكفيك واقضب وتعط اعمال روعى
فيها الاستمرار فمير عنها الشاعر بصيغة المضارع .

ومنه قول عنبرة :

سياتيكم عنى وان كتبت ناثيا
دخان الجندى دون بيتى منود (36)

فكلمات سياتيكم ، وكنت جاتا بصيغة المضارع
مراعاة للاستمرار .

ومنه قول زهير :

على رسلكم انا سنعدو وراكمم
فتنعمكم اراحنا او سنعدو (37)

فكلمات سنعدو ، وتنعمكم ، وسنعدو جاءت
بصيغة المضارع مراعاة للاستمرار وهكذا .

نفرج من ذلك بان العرب قد وضعوا صيغة
للزمن في حالة تعلقه بالفعل منظورا اليه من ناحية
الانتطاع والاستمرار لا من ناحية الجهة من ماضى
وحاضر ومستقبل كما فعلت اللغات الآرية الأخرى ،
اى ان اللغة العربية لم تنظر الى الزمن نظرة منطقية
كما نظرت اليه هذه اللغات ، وانما نظرت اليه نظرة
وجودية ، اى من ناحية الصورة التى يكون بها متعلقا
بالزمن منقطعاً او مستمرا ، وقد تنبه المستشرقون
الى هذه الحقيقة فقسّموا الحدث فى اللغات السابقة
ومنها العربية الى قسمين : حدث تام وقع وانتهى ،
وحدث ناقص لم يتم ولم ينته . ثم جعلوا تلك الصيغة
التى يسميها النحاة من العرب بالفعل الماضى خاصة
بالاحداث التى تمت وانتهى وقوعها وتلك الصيغة التى
نسميها بالمضارع للتعبير عن احداث لم ينته
وقوعها : (38) وقد جاء هذا التقسيم فى العربية اقرب
الى حقيقة علاقة الفعل بالزمن ، والى طبيعة الزمن
نفسه من التقسيم المنطقى من ناحية الجهة الذى
عرفته اللغات الآرية وذلك لان تقسيم الزمان من ناحية

الجهة الى ماضى وحاضر ومستقبل كما يقول بن حسون
« تقسيم فلسفى افتراضى يعتبر قياسيا لكمية تجرية
فى الرياضيات ، او الطبيعة او الفلسفة ولكنه من الناحية
الوجودية زمن لا وجود له على هذه الصورة لان
الزمان صيرورة ، وديمومة تبدأ من الماضى ، وتستمر
فى المستقبل دون ان تتوقف فى زمان اسمه الحاضر
لان الحاضر زمن لا يتصور وجوده الا اذا تصورنا
سكون الزمن عند لحظة منه تسمى الحاضر ، وقد
كان ذلك متصورا فى ظل الفلسفات الاغريقية القديمة
التى تصورت الزمن على انه امتداد يمكن ان تقطعه
لحظات سكون (39) » ان الزمن فى التصور الحديث
ليس لحظة تحل محل لحظة اخرى ، والا لما كان هناك
سوى الحاضر ولما كان هناك امتداد للماضى فى
الحاضر ولا تطور ولا ديمومة محددة بالسنات . ان
الديمومة هى التقدم المستمر للماضى الذى ينجر فى
المستقبل ويتضخم كلما تقدم . (40) لقد اصّر النحاة
على برفض فكرة الزمن على اساس انه امتداد هندسى
قابل للتقسيم ، فقسّموه الى ماضى وحال ومستقبل ،
على التصور العربى للزمان على انه صيرورة وحركة
مستمرة لا يمكن تصور الفعل فى علاقته به الا فى احدى
حالتين ، وهما اما انتطاع او استمرار بصرف النظر
عن الجهة ، ولقد تظن بعض المتكلمين الى ان الزمن
الحالى لا وجود له على الحقيقة ، ولكن وجهة نظرهم
ضاعت امام الرغبة العارمة عند جمهرة النحاة فى
التقسيم المنطقى للزمن .

يقول ابن يعيش « وقد انكر بعض المتكلمين
فعل الحال ، وقال ان كان قد وجد فيكون ماضيا ، والا
فهو مستقبل وليس ثم ثالث » (41) .

يمكن القول بان فكرة الزمن على هذه الصورة
فى اللغة العربية ارتقى بكثير من فكرة الزمن فى اللغات
الجرمانية واللاتينية ، والتى لم تنقطع الى حقيقة
الاستمرار فى الزمن الا فى عصور متأخرة جدا . يقول
« متدرّيس » استعملت اللغات الجرمانية مثلا للتعبير
عن الزمن الاستمراري الذى لم يكن فيه ، اسم

(35) حماسة 106/1

(36) مختار ص 206

(37) مختار ص 204

(38) اسرار اللغة ، انيس ص 154 .

(39) التطور الخالق 14/23

(40) نفس المصدر والصفحة

(41) الفصل 4/7

حقيقة الإيجاز وحدوده :

عرف أبو هلال العسكري الإيجاز بقوله « الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة وما تجاوز مقدار الحاجة فيه فضل داخل في باب الهزل والخطل، وهما من أعظم ادواء الكلام وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصنعة » وقد يعترض على هذا التعريف بأنه مدرسي ليس من اللازم أن يكون مطابقا لواقع الحال ، فحين يكون الإيجاز نتيجة لطبيعة تركيبية في العقليّة أو اللغة أو في كليهما معا كما سبق أن ذكرنا يكون الإيجاز مسررا فرضته الطبيعة ولا يكون توخيا للجودة في الكلام ويقتضى ذلك أن تتأكد للعرب دراية بإمكانيات أخرى في التعبير غير الإيجاز وأن يكون ما عرف من إيجازهم وانبا بهذا الشرط : ونحن على أي حال لا نتمسك بهذا التعريف ابتداء لانا نريد أن نصل الى ذلك من خلال دراسة النصوص نفسها فلنسال إذن عن حد الإيجاز لا عن حقيقته أو معناه ، فما هو حد الإيجاز ؟

حد الإيجاز :

القصر — أي الاجمال — والحذف.

والتصر تقليل الالفاظ وتكثير المعاني ، مثل قوله تعالى «ولكم في القصاص حياة» ومنه المثل السائر في الشعر أو في كلام العرب ، كما هو في القرآن والحديث أيضا مثل قول طرفة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالآخبار من لم تزود

ومثل قولهم : الصيف ضيعت اللبن ، وسبق السيف العذل .

ومثل قول الرسول عليه السلام « اياكم وخضراء الدمن ...

» فمعاني هذا الكلام — كما يقول العسكري أكثر من الفاظه ، وإذا أردت أن تعرف ذلك فحلها وابنها بناء آخر ، فانك تجدها تجيء في أضعاف هذه الالفاظ « (52) أما الحذف فهو حذف بعض أجزاء الجملة دون الإخلال بمعناها ، وذلك كأن تحذف المضاف

الفاعل مصحوبا بفعل الكون . فاننا نجد في الإلمانية العليا المتوسطة تراكيب مثل
seken sekench sint
كل أولئك الذين يرونني)
der arime heienich
All die mich der riter (البيت 673)
mit tem der leve van endist

الفارس .. الذي معه يسافر الاسد ..) (Wein)
بيت 2986) هذه الحاجة نفسها هي التي تعنت على نشوء التركيب الإنجليزي :

الذي شاع (I was going, I am going)
شيوعا هائلا ، ويلاحظ في فرنسية القرن السادس عشر وجود محاولة لخلق استمراري من هذا القبيل بواسطة الفعل (être : كان) أو (aller : ذهب) ولكنه اندثر بعد أن حكم عليه (بالرب Malherbe وميناج Menge) بالإعدام

يقول « cette prison qui va vous renfermer »
ويقول لا فونتين :

Je m'en vais désaltérant (أطفئ ظمئي) (50)

هذا التصور العربي السليم للزمن ، وهذا الاختبار الدقيق للصنيع الذي يعبر عن علاقة الفعل به يكشف عن عدة مسائل أهمها أن فيها تأكيدا لما سبق أن ذكرناه من مرور هذه اللغة بفترة تطور حضاري طويل ، انه يؤكد تطورا مائلا في العقليّة العربية من ناحيتي الإدراك وقوة الملاحظة ، وسنعرّف في دراستنا للإيجاز الى أي مدى قد امتد هذا التصور، كما سندرس في بقية الأبحاث المقبلة كيف أصبح إدراك الزمن باعتباره صيرورة خلافة عللا أساسيا في تطورهم وتصورهم الاخلاقي والديني والعلمي .

ب — في الإيجاز :

الإيجاز في العربية هو الخصيصة التي تتعلق بها شبهة الطبيعة التركيبية في دراسات المستشرقين ومن تابعهم من الدارسين العرب . ونريد هنا أن نتعرف على حقيقة هذا الإيجاز ، واما إذا كان هو الاسلوب الوحيد الذي عرفته العربية ، وذلك من خلال نصوص من القرآن والحديث وكتب الأخبار التي تمثل الى ، جانب الشعر القديم (الجاهلي) مصادر العربية ، وبمدها نتكلم عن دلالة الإيجاز الفكرية .

(50) اللغة ، فندريس ترجمة الدواخلي ص 148/149

(51) كتاب الصناعتين للعسكري ص 172

(52) نفس المصدر ص 187

وتقيم المضاف إليه مقابله وتجمل الفعل له يقول الله تعالى « واسأل القرية » أي أهلها .

ومنها اتباع الفعل على شئين وهو لاحد هما ويضمر للاخر فعله ، وهو قوله تعالى « فاجمعوا امركم وشركاءكم ، معناه : واندموا شركاءكم ، ومنها ان يأتي الكلام على ان له جوابا فيحذف الجواب اختصارا لعلم المخاطب : لقوله عز وجل : « ولو ان قرآنا سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم به الموتى فله الامر جيبا » اراد لكاد هذا القرآن ، نحذف . وقد عد المسكوي أوجها كثيرة للحذف نكتفي منها بما ذكرناه (53)

وهنا نقف على اول دليل حاسم ضد شبهة الطبيعة التركيبية وذلك قبل ان نتجاوز بدراستنا الإيجاز نفسه فقد رأينا ان الإيجاز يشتمل على ضربين لا على ضرب واحد اولهما الإجمال وهو الذي يمكن ان تكون له صلة بالطبيعة التركيبية وهو التصر أو الإجمال لانه يدل بالتليل من الكلام على الكثير من المعنى دون ان يحذف شيء من بنية الجملة نفسها ، بمعنى ان الجملة هنا موجزة بحكم بنائها النحوي ودلالاتها المعنوية معا فقوله تعالى « لكم في القصص حياة » ، جملة تامة مكونة من مبتدأ وخبر وجار ومجرور لا يوجد فيها شيء ناقص من بنيتها الاساسية او من توابعها ومع ذلك فهي قابلة للتليل الى كثير من الجمل مثل : اذا قتل انسان آخر متممدا دون ان يكون لهذا القتل موجب يبرره وذلك بان لا يكون دفاعا مشروعاً عن النفس او في حرب معلنة من الامام الشرعي ، او تنفيذا لحد من حدود الاسلام باذن الامام فان قتل هذا القاتل اذا لم تقبل فيه الفدية ولم يعف عنه اولياء القتل - ضرورة تستلزمها حماية المجتمع وضمان امته ..

ويمكن ان يقال في الاجمال على هذا الاساس ان اللفاظ استخدمت فيه كاعوية وان المعنى قد ركز فيه تركيزا شديدا ، ولم يفصل او يبسط وتديتال وذلك شيء نترك الاجابة عليه قليلا - ان هذا من نتيجة الطبيعة التركيبية التي لا تسمح لاصحابها ببسط الكلام وتفصيله على هذا الوجه .

اما الحذف فهو شيء آخر تماما ، لان الحذف لا يمكن ان يكون نتيجة عجز عن بسط الكلام فالنكتم

يترك بعضا من اجزاء الجملة اختيارا بدليل انه لا يخل مع الحذف بشرط صحة الكلام مما يؤكد انه على وعى بمكان الحذف وانه لو شاء لاتي بالمحذوف في مكانه ، ولكنه عدل عنه التماسا للاجود من الكلام ، وذلك واضح في وجوه الحذف التي اوردها فلانعميد ما ذكرنا ، فلنلق اذن نظرة على القرآن والحديث في ضوء هذا المفهوم .

1 - القرآن :

لا اريد ان افصل ما يعرفه الجميع من الفارق بين اسلوبي مكة والمدينة في القرآن ، ومن ان الاسلوب المكي هو اسلوب الدعوة التي تلجا الى التأثير على الوجدان وان اسلوب المدينة يغلب عليه طابع التعليم والجدل وان السورة القصيرة ، والجملة القصيرة هي طابع القرآن المكي وان الجملة الطويلة والسورة الطويلة هي طابع القرآن المدني ذلك شيء يعرفه الجميع ولكن الذي احب ان اتبه عليه ان طابع الإيجاز في الجملة القصيرة والسورة القصيرة هو طابع الإيجاز بالحذف وليس بالاجمال ، فالجملة التي تقال للحكمة ، او للمثل الساخر لا تعثر عليها الا على النثرة على طول القسم المكي مثل « قتل الانسان ما اكفره » ومثل « بل الانسان على نفسه بصيرة » ومثل « ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى » بل لو استعرضنا القرآن كله استعراضا استقصائيا لما خرجنا منه باكثر من بضع عشرات من الجمل الجملة التي تطلق مثلا ساثرا ، واذا فالاسلوب الاساسي المستعمل من اساليب الإيجاز هو اسلوب الإيجاز بالحذف لا بالتصر ، وهذا الاسلوب ، كما قلنا لا علاقة له بالطبيعة التركيبية لان موضع الحذف معروف من القائل والمستمع ولو شاء احدهما لرد المحذوف الى مكانه وسنورد امثلة كهللة على اتصال الكلام - على شرط العرب - اتصالا تاما في هذا النوع من الاساليب وورود المعنى فيها مستقصى مستوفى بضرب من التفصيل الخاص الذي يجعل الزمن جزءا من بنية الجملة ، او يجعل الكلمة المتروكة فيها بيديلا عن الكلمة المذكورة .

على ان ذلك لم يمنع حين يقتضى المقام السرد القصصى او تفصيل المعنى ان يعدل القرآن عن الحذف الى التفصيل ، بل ان دراسة القصة في القرآن تكشف عن ان القصة الواحدة ترد فيه في عدة مستويات مختلفة من الحذف والتفصيل فقد ترد القصة في جزء من آية ، وترد نفسها في آية كاملة ثم ترد مفصلة بعض التفصيل بل ثم ترد بتفصيل اكثر وهذا حسب حاجة الكلام ، وقصة يوسف مثال نمونجي على ان اللفظة العربية قادرة على السرد حين تريد السرد ، وقادرة على التفصيل حين تريد التفصيل ، فنحن نجد كثيرا من مشاهد القصة ترد بتفصيلها الدقيق ، ولما كنا لا نستطيع ان نقدم دراسة كاملة في هذا الموضوع فانا نكتفى هنا بأحد المشاهد من هذه القصة :

مشهد الغواية : « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الابواب وقالت هيت لك . قال : معاذ الله ، انه ربي احسن مثواي انه لا يفلح الظالمون . »

ولقد همت به ، وهم بها ، لولا ان راي برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، انه من عبادنا المخلصين .

واستبنا الباب ، وقتت قميصه من دبر ، وألنيا سيدها لدى الباب قالت : ما جزاء من اراد بأهلك سوءا الا ان يسجن او عذاب اليم .

قال : هي راودتني عن نفسي .

وشهد شاهد من اهله ؛ ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما راي قميصه قد من دبر ، قال : انه من كيدكن ان كيدكن عظيم ، يوسف اعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين « يوسف 13/29 .

اما في حين يكون الامر امر حجاج او بيان ، او تشريع فان السرد والتفصيل يكون هو الاصل ولهذا طالت السور المهدية حين اقتضت ظروف التعبير ذلك ، ونكتفى هنا بآيات الدين مثلا على اللفظة العلمية التثنيية التحليلية .

يقول تعالى « ياايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا ياب كاتب ان يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق ، وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا ، فان كان الذي عليه الحق سفيها او ضعيفا ، او لا يستطيع ان يمل هو ، فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احدهما فنذكر احدهما الاخرى ، ولا ياب الشهداء اذا ما دعوا ، ولا تساموا ان تكتبوه صغيرا او كبيرا الى اجله ، ذلك اقتسط عند الله ، واقيم للشهادة ، وادنى الا ترتابوا ، الا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها وأشهدوا اذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وان فعلوا فانه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم . وان كنتم على سفر ، ولم تجدوا كتابا فرهان مقبوضة ، فان امن بعضكم بعضا فليؤد الذي اؤتمن امانته ، وليتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم « البقرة 282 - 283 .

2 - الحديث :

يختلف اسلوب الحديث عن اسلوب القرآن ، وللعلماء حديث طويل مضطرب حول طبيعة هذا الاختلاف ومداه (54) والذي نتصوره في وجه هذا الاختلاف هنا هو ان القرآن نزل من عند الله معجزة لغوية وبلاغية يتحدى العرب ، ولذلك لم يكن هدفه متصور على الابانة والانساح ، وانما كان مهتدا الى الجمال النفسى باعتباره هدفا اساسيا تتحقق به المعجزة ويمتد به التأثير الوجدانى الى اقصى مداه ، ولا يعنى هذا ان القرآن قد اخل بشرط الابانة والانساح حين يكون التعليم هو الاصل كما هو الشأن في المسائل التشريعية ، اما الحديث فهو كلام الرسول نفسه لم يكن تحديا وانما هو يؤدي اساسا وظيفة التعليم ولذلك لم يكن الجمال الفنى هدفا اساسيا له ، وان كان ذلك لا يعنى انه اخل بشرط الجمال النفسى حين يكون الهدف الوصول بالتأثير الوجدانى الى اقصى مداه كما هو الشأن في المواعظ

(54) انظر اعجاز القرآن للباتلانى ص 194 وما بعدها واعجاز القرآن للرانعى ص 366 وما بعدها.

ولذا غلب على أسلوب الحديث السرد ، والترسل ، والتبسط كما غلب على أسلوب القرآن التشخيص والتصوير والحذف .. الخ .

أي: استعمال الأساليب الفنية ، وطابع السرد والترسل ، والتبسط هو أسلوب الجانب التشريعي من الحديث ، وهو يشكل الركن الأساسي منه ، فالمعاني هنا على قدر اللفاظ ، والالفاظ على قدر المعاني لأن الدقة هي الشرط الذي تستلزمه لغة التشريع والتعليم .

ونضرب لذلك مثلا ببعض احاديث التشريع :

عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذ الى اليمن قال « انك تأتي روما من اهل الكتاب فادعهم الى شهادة ألا اله الا الله وانى رسول الله فان هم اطاعوك لذلك فاعلمهم ان الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فان هم اطاعوك لذلك فاعلمهم ان الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من اغنيائهم فتد على فقرائهم ، فان اطاعوك لذلك ، فايك وكرائم اموالهم ، واتفق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب » ، رواه الجماعة .

ويتخذ تعليم الرسول عليه السلام في الغالب ، صورة السؤال ، والجواب حتى اذا لم يكن هناك سؤال وجواب ؟ عن ابي بكر قال « خاطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر فقال : اتدرون أى يوم هذا ، قلنا : الله ورسوله اعلم ، فسكت حتى ظننا انه سيسمي بغير اسمه قال : ليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى ، قال : أى شهر هذا ؟ قلنا الله ورسوله اعلم ، فسكت حتى ظننا انه سيسمي بغير اسمه فقال : ليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى . قال : أى بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله اعلم فسكت حتى ظننا انه سيسمي بغير اسمه . قال : ليست البلدة ؟ قلنا : بلى . قال : فان نساعكم واموالكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا الى يوم تلقون ربكم ، الا هل بلغت ، قالوا : نعم ؟ قال : اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ اوعى من سامع فلا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم وجوه بعض » رواه احمد والبخارى . وثيقة الصلح مع قريش عام الحديبية تتضح لنا صورة اللغة التى كانت تكتب بها المعاهدات والتي كانت تستعملها قريش فى

معاهداتها ، واحلامها ، ومصالحاتها ، وهى من املاء الرسول عليه السلام وهى : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب بين الناس عشر سنين ، يامن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على انه من اتى محمدا من قريش من غير اذن وليه ، رده عليهم . ومن جاء قريشا من مع محمد لم يردوه عليه ، وان بيننا عيبة مكثوفة ، وانه لا اسلال ، ولا اغلال ، وانه من احب ان يدخل فى عهد محمد وعقده دخل فيه ، ومن احب ان يدخل فى عهد قريش وعقدهم دخل فيه . وانك ترجع عنا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة ، وانه اذا كان عام قابل خرجنا عنك ، فدخلتها باصحابك ، فاقمت بها ثلاثا ، معك سلاح الراكب ، والسيوف فى القرب ، لا تدخلها بغيرها » ، ابن هشام 317/2 ، 318 .

ونضرب مثلا : للغة السرد القصصى فى قصتين من قصص الحديث النبوي هما قصة اصحاب الغار ، وقصة الابتلاء .

القصة الاولى « اصحاب الغار » :

روى البخاري ومسلم عن مالك بن صعصعة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « بينا ثلاثة نفر يمشون فآووا الى غار فى جبل فاتحطت على نم غارهم صخرة من الجبل فاتطبقت عليهم ، وقال بعضهم لبعض : انظروا اعمالا عملتموها صالحة لله فادعوا بها لعل الله يفرجها عنكم ، فقال احدهم : اللهم انه كان لى واندان شيخان كبيران وامراتى ، ولى صببة صفار ارعى عليهم فاذا ارحت فوجدتهما قد ناما فحطبت كما كنت احلب ، فنجئت بالحلاب فمقت عند راسها اكره ان اوقظها من نومها واكره ان اُسقى الصبية قبلها والصبية يتضاغون عند قدمي ، فلم يزل ذلك دابسى ودأبهم حتى طلع الفجر ، فان كنت تعلم انسى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فانرج لنا فرجة نرى منها السماء . ففرج الله منها فرجة فراوا منها السماء . وقال الآخر : اللهم انه كانت لى ابنة أحببتها كاشد ما يحب الرجال والنساء وطلبت اليها نفسها فابت حتى آتيتها بمائة دينار فتمت حتى جمعت مائة دينار فنجتها بها فلما وقعت بين رجلها قالت : يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم الا بحقه ، فمقت عنها - فان كنت تعلم انسى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فانرج لنا منها فرجة ففرج لهم وقال آخر :

اللهم انى كنت استلجرت اجرا بفرق اربز فلما قضى
 عمله قال : اعطنى حتى ، فعرضت عليه سرقة
 فرغب عنه ، فجاه فقال : اتق الله ولا نظلمنى
 حتى ، قلت : اذهب الى تلك البقر ورعاهما فخذها
 فقال : اتق الله ولا تستهزى به بسى ، فقلت : انى لا
 استهزى بك ، فخذ تلك البقر ورعاهما فخذها وذهب
 به ، فان كنت تعلم انسى نعلت ذلك ابتغاء وجهك ،
 فاترج لنا ما بقى ، فترج الله ما بقى .

القصة الثانية : «الابتلاء»

ان ثلاثة نفر من بنى اسرائيل ابرص واقترع
 واعى ، اراد الله ان يبتليهم فيبعث الله اليهم ملكا
 فانسى الابرص فقال : اى شىء احب اليك قال لون
 حسن وجلد حسن ، ويذهب عنى الذى تذرني الناس
 قال : فمسحه فذهب قفره واعطى لونا حسنا وجلدا
 حسنا . قال فاي المال احب اليك ؟ قال الابل او قال
 البقر — شك اسحاق ، الا ان الابرص او الاقترع ،
 قال احدهما الابل وقال الاخر البقر — قال : فاعطى
 ناقة عشراء ، فقال : بارك الله لك فيها . قال : فانى
 الاقترع فقال : اى شىء احب اليك ؟ قال شعر حسن
 ويذهب عنى هذا الذى تذرني الناس ، قال فمسحه
 فذهب عنه ، واعطى شعرا حسنا قال : فاي المال
 احب اليك ؟ قال البقر . فاعطى بقرة حاملا ، فقال
 بارك الله لك فيها . قال : فانسى الاعمى فقال : اى
 شىء احب اليك ؟ قال ان يرد الله الى بصري فابصر
 به الناس ، فقال : فمسحه فرد الله اليه بصره قال :
 فاي المال احب اليك ؟ فقال : الغنم فاعطى شاة
 والدا فانجح هذان وولد هذا . قال : فكان لهذا واد
 من الابل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم
 ثم انه اتى الابرص فى صورته وهيئته ، فقال : رجل
 مسكين قد تقطعت به الحبال فى سفري ، فلا بلاغ
 لى اليوم الا بالله ثم بك ، اسالك بالذى اعطاك اللون
 الحسن ، والجلد الحسن والمال ، يعيرا اتبلغ عليه
 فى سفري . فقال الحقوق كثيرة ، فقال له : كئسى
 اعرفك ألم تكن ابرص يقترك الناس ، فقيرا ، فاعطاك
 الله ، فقال : انما ورثت هذا المال كائرا عن كائرا .
 فقال : ان كنت كاذبا فصيرك الله الى ما كنت .

قال : واتسى الاقترع فى صورته ، فقال له مثل ما قال
 لهذا ، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا . فقال ان كنت
 كاذبا فصيرك الله الى ما كنت .

قال : واتسى الاعمى فى صورته وهيئته فقال :
 رجل مسكين وابن سبيل انتطعت به الحبال فى سفري
 فلا بلاغ لى اليوم الا بالله ثم بك ، اسالك بالذى رد عليك
 بصرك شاة اتبلغ بها فى سفري فقال كنت اعمى فرد
 الله بصري ، فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا
 اجهدك اليوم شيئا اخذته لله ، فقال : اسك مالك
 فانما ابتليتم ، فقد رضى الله عنك وسخط على
 صاحبك (رواه البخاري ومسلم عن ابى هريرة ،
 رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)

لغة الاخبار :

هناك لغة اخرى غير لغة القرآن والحديث
 والشعر والمثل هى لغة الموسوعات الاخبارية
 والتاريخية ، لا ادري لماذا لم ينحصرها القائلون
 بالطبيعة التركيبية ، وهى لغة تقوم بحكم موضوعها
 على التفصيل لا على الاجاز ، لقد كانت هذه اللغة
 موجودة قبل الاسلام بطريق الرواية الشفهية ، فلما
 بدأ عصر التدوين تم عن طريقها تدوين تاريخ الاسلام
 والتاريخ السابق عليه سواء اكان تاريخ ادب وشعر
 او تاريخا اساسيا ، فقد استقدم معاوية عبيد بن ثرية
 الجهمى من صنعاء . فكتب له كتاب الملوك ، واخبار
 الماضين (55) كما دون بعض الصحابة كتابا فى السيرة
 منهم عروة بن الزبير بن العوام (— 92 هـ) وعنه اخذ
 ابن اسحاق والواقدي والطبري ، ومنهم ابان بن
 عثمان بن عفان (— 105 هـ) ووهب بن منبه الينسى
 (— 110 هـ) وشرجيل بن سعد (— 123 هـ) وابن
 شهاب الزهري (— 121 هـ) . وعاصم بن عمر بن
 قتادة (— 120 هـ) وعبد الله بن ابي بكر بن حزم
 (— 135 هـ) وكان هؤلاء الاربعة ممن عنوا باخبار
 المغازي وما يتصل بها (56).

ومنهم موسى بن عقبة المتوفى سنة 141 هـ ،
 ومعر بن راشد المتوفى 150 هـ ، ومحمد بن اسحاق
 المتوفى فى سنة 152 هـ .

وجاء بعد هؤلاء غيرهم منهم زياد التكتائي المتوفى سنة 183 هـ ، والوافدي صاحب المغازي المتوفى سنة 207 هـ ، ومحمد بن سعد المتوفى سنة 230 هـ ، وابن هشام المتوفى سنة 218 هـ (57) .

ولم تكن لغة الاخبار متصورة على رواية التاريخ السياسي فقط أو ذكر أيام العرب وانما كانت تشمل ايضا الاخبار الادبية والتخصص التي تقوم عليها الامثال ، والمناسبات التي ترتبط بها الاشعار ، وقد استمر التقليد العريسي القديم وهو تقليد الرواية الشفهية وهي التقليد المعتد حتى بعد عصر التدوين ، ولم يكن العلماء يطمنون لخبر الا اذا كان مرويا باسناده عن طريق الرواية ، وقد حاول علماء اللغة والادب ، وضع شروط للرواية واللغة والاخبار ، لضبط نقلها عن العرب الصرحاء ، وذلك على نسق شروط الجرح والتعديل التي وضعها علماء الحديث .

ولا يهينا هنا ان نناقش الاخبار نفسها تاريخية كانت أو أدبية، وانما الذي يهينا الاسلوب الذي رويت به هذه الاخبار في كتب التاريخ وكتب الادب . ونذكر هنا كنموذج لهذا الاسلوب في اخبار التاريخ رواية ابن اسحاق لخبر رضاعة الرسول عليه السلام . قال ابن اسحاق : وحدثني جهم بن ابي جهم مولى الحارث ابن حاطب الجهمي ، عن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب ، او عن حدثه عنه قال : كانت حليلة بنت ابي ذؤيب السعدية ، أم رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ارضعته ، تحدث : انها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر ، تلتبس الرضعاء ، قالت : وذلك في سنة شهباء ، لم تبق لنا شيئا . قالت : فخرجت على اثنان لي قمراء في بياضها ككرة ، معنا شارف (تاقة مسنة) لنا ، والله ما تبض (ما ترشح) بقطرة ، وما نسام ليلنا اجمع من صبينا الذي معنا ، من بكائه من الجوع ، ما في ثديي ما يغنيه ، وما في شارفنا ما يغذيه ، ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج فخرجت على اثنائي تلك فلقد ادمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضمنا وتمخضا ، حتى قدمنا مكة تلتبس الرضعاء ، فما منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم

فتباه ، اذا قيل لها انه يقيم ، وذلك انا انما كنا نرجو المعروف من ابي الصبي ، فكنا نقول ، يقيم او ما عسى ان تصنع امه وجده ! فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معي الا اخذت رضيعها غيري ، فلما اجمعنا الاطلاق قلت لصاحبي : والله انسى لاكره ان ارجع من بين صواحيي ولم آخذ رضيعا والله لاذهبن الى ذلك اليتيم فلاخذه ، قال لا عليك ان تفعلي ، فغسني الله ان يجعل لنا فيه بركة . قالت فذهبت اليه فاخذته ، وما حلنسي على اخذه الا اني لم اجد فيه قالت : فلما اخذته ، رجعت به الى رحلي ، فلما وضعت في حجري اقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى وشرب معه اخوه حتى روى ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجي الى شارفنا تلك ، فاذا انها لحائل ، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ربا وشبعنا فبنتنا بخير ليلة قالت : يقول صاحبي حين اصبحتنا : تعلمي والله يا حليلة ، لقد اخذت نسمة مباركة : قالت : فقلت : والله اني لارجو ذلك قالت : ثم خرجنا وركبت انا نسي ، وحملته عليها معي فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء ومن حصرهم ، حتى ان صواحيي ليقطن لي : يا بنته ابي ذؤيب ويحك ! اربعي علينا ، اليست هذه اناك التي كنت خرجت عليها ؟ فاقول لهن : بلى والله انها هي ، فيقطن : والله ان لها لثاننا ... الخ (58)

ونموذج من اخبار الادب يروي المفضل الضبي قصة المثل العريسي (تلك بتلك) فيقول « وزعموا ان عمرو بن جدير بن سلمى بن جندل بن تهشل بن دارم ابن مالك ان حظلة كانت عنده امرأة معجبة له جميلة وكان ابن عمه يزيد بن المنذر ابن سلمى بن جندل بها معجبا ، وان عمرا دخل ذات يوم بيته فرأى منه ومنها شيئا كرهه حتى خرج من البيت فأعرض عنه ثم طلق المرأة من الحياء منه نمك ابن جدير ما شاء الله لا يقدر يزيد بن المنذر على ان ينظر في وجهه من الحياء منه ولا يجالسه ، ثم ان الحى غير عليه وكان فيمن ركب عمرو بن جدير قلما لحق بالجبل ابتدره فوارس فطعنوه وصرعوه ثم تنازلوا عليه وراه يزيد بن المنذر فحبل عليهم فصرع بعضهم واخذ فرسه واستنفذه ،

ثم قال له اركب وانج فلما ركب قال يزيد (تلك بتالك)
نهل جزيتك فذهبت مثلا « (59)

ذلك أسلوب آخر من أساليب العربية كما
جاءت به النصوص التي رويت بنفس لغة عرب ما
قبل الإسلام ، وقبل ان يقال انها قد تأثرت بأي لغات
أو أفكار غيرت من طبيعتها وعدلت من أساليبها . وهو
أسلوب التعميل والتحليل الذي يقال انه من سمات
اللغات الآرية بحكم طبيعتها التحليلية ، وان اللغة
العربية قد حرمت منه بحكم طبيعتها التركيبية . وهو
الأسلوب الذي عرّفه البلاغيون ووضعوه تحت باب
(الاطناب) وقال اصحاب الاطناب : المنطق انما هو بيان
والبيان لا يكون الا بالاشماع ، والثناء لا يتسع الا
بالافتناع ، وفضل الكلام ابينه ، وابينه اشدّه احاطة
بالمعاني ، ولا يحاط بالمعاني احاطة تامة الا
بالاستقصاء (60) والاستقصاء هو التحليل ، وقالوا
« البلاغة الاجاز في غير عجز ، والاطناب في غير
خطل » (61) .

ولنلق نظرة سريعة على النصوص التي
اوردناها لتمثيل هذا الأسلوب ، - لنعرف ان كانت
واقعية بشرط البسط والتحليل .

في مشهد الغواية ، وهو مشهد واحد مأخوذ من
قصة طويلة خصصت لها سورة طويلة من سور
القرآن هي سورة يوسف ، والتي تدور حول قصة
يوسف وتبدأ من طفولته الى القائه في الجب الى اخذه
الى بيت العزيز الى تعرضه لغواية امرأة العزيز ثم
القائه في السجن ، ثم خروجه منه امينا على بيت
المال ، ثم حضور اخوته وتعرفهم عليه ، في سلسلة
طويلة من الاحداث والمشاهد والازمنة والامكنة في بناء
فنى محكم ، كادق واحكم ما تكون قصة في ادب اي
لغة عرفت القصة وبرعت فيها - نجد في هذا المشهد
واقعة الاغواء مبسطة بتفصيل دقيق ، فهو لم يختصر
لنا المشهد في جملة ، وانما فصله بدقائقه وخفاياه ،
وما دار فيه من شد وجذب وحديث حتى الفاظ المرادة
نفسها ... هيت لك .

وفي آيات الدين نجد ان جملة النداء تفتتح بيا
ايها الذين آمنوا ثم لا تختم الا بعد اكثر من صفحة

طويلة من صفحات القرآن ، في جملة واحدة طويلة
كاطول ما تكون الجمل تتخللها جمل قصيرة تسهم كلها
في تفصيل معنى واحد فقط هو (كتابة الدين) ، وليس
هنا مجال تفصيل الاساليب المتنوعة التي استعملها
القرآن في قصصه وجدله ، وعرضه آيات الله .. الخ
وهو وحده قاطع الدلالة في طاقته هذه اللغة وامكانياتها
التي لا تقف عند حد .

وفي نصوص الحديث نلاحظ غلبة السرد القصصى
واسلوب الحوار ، وتفصيل المعنى على الجانب
الاكبر من حديث الرسول عليه السلام على الرغم من
ان الرسول عليه السلام قد اوتى جوامع الكلم ، وهو
الأسلوب المحكم المركز الذي لم يستسهل الذين لم
يتعودوا الا على فهم الاسلوب المفصل الذي لم تعرف
لغاتهم غيره .

ففي خطبة يوم النحر نجد معلما يحرص اشد
الحرص على تحديد المعنى وبسطه وتفصيله
باسلوب الحوار فهو يريد ان يقول لهم (لقد حرمت
عليكم القتل والسرقة) هذه الجملة الموجزة قد بسطت
بسطا في حوار طويل يتجاوز عشرة اسطر ، وفي نص
الحديث يصاغ النص بدقة اسلوب المعاهدات الدولية
التي لا يترك فيها طرف للاخر فرصة واحدة يؤول فيها
النص لحسابه وقد اورد ابن هشام كيف رفض
سهيل بن عمرو ان يكتب في النص محمد رسول الله
لان في هذا اعترافا منهم بشيوته وهو ما يحاربونه عليه
وفي قصتي اصحاب الغار والابتلاء نجد نموذجين
لقصتين تصيرتين كاملتين بكل مقاييس القصة الحديثة
وبشروطها الفنية ، وفي دوران كل منهما على معنى
جزئى في حوار دقيق محكم تنتهى الى لحظة تنوير .

وفي رواية ابن اسحاق لخبر رضاعة الرسول
نجد عرضا قصصيا طويلا مسهبا لحادثة واحدة هي
حادثة (الرضاعة) .

وحتى الامثال التي يقول احمد امين انهم عرفوها
ولم يعرفوا القصة هذه الامثال لا تروى الا ومع كل
مثل قصة ، وسواء اكانت القصة صحيحة او مخترعة
فان دلالتها تعنى ان العرب عرفوا القصص بانواعها
واقعية ومخترعة ، وقد رويها هنا نموذجا لقصة

(59) امثال العرب ص 23

(60) كتاب الصناعتين ، للمسكري ص 190

(61) دلائل الاعجاز لعبد القاهر ص 111 ، 112

المثل (تلك بتلك) لتكون شاهدا على ان العرب عرفوا القصة كما عرفوا المثل على عكس ما يقول احمد أمين .

ثم استخدامها في التعبير ، وبما يستلقت النظر ان الایجاز بالحذف يدخل بصفة أساسية في تركيب القصيدة القديمة وبنيتهما ، كما يدخل في الوقت نفسه ، وبنفس القدر في تركيب التعبير القرآني مشكلا اهم دعائم اعجازه ، وسنفرده الشعر بدراسة خاصة باعتبارها حجر الاساس في دراستنا ونقتصر هنا على تقديم بعض النماذج القرآنية على هذا الضرب من الفن ، وستقوم هذه الدراسة على اساس من فك التعبير القرآني الى «بعاده الحقيقية بقدر الامكان ولن تقوم هذه الدراسة على اساس من تفسير المعاني ، وانما سنقتصر فقط كما قلت على فك التعبير ، ولذلك سأضع النص القرآني في اقواس يتصل بينها التعبير عن طريق سرد ما يمكن ان يحل محل الكلمات المستغنى عنها على ما اعتقد والله اعلم بمراده .

النص الأول : « قصة ميلاد موسى » .

(و) قد سبق في الزمن القديم ان (اوحينا الى ام) النبي « موسى » بعد ان وضعته « ان ارضيه فاذا خفت عليه) من فرعون وجنوده (فالتقيه في اليم) في تابوت من خشب (ولا تخافى) عليه الفرق (ولا تحزنسى) على فقده و « انا رادوه اليك » سليما بعد فترة من الزمن تطول او تقصر (و) انا « جاعلوه » بعد ان يبلغ مبلغ الرجال « من المرسلين) فلما القته في اليم دفع به التيار جهة قصر فرعون « فالتقطه آل فرعون » من الماء حين ابصروا به « ليكون لهم » بعد حين وهم جاهلون بما سيكون « عدوا » لانه سيتصدى لطغيانهم « وحرنا) لانا سوف نصره عليهم وذلك « ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا) في اعتقادهم وسياستهم وتصرفاتهم «خاطئين وقاتل امرأة» فرعون لما راته وخشيت عليه القتل « فرعون » ابق عليه « قره عين لى ولك « فليس لنا اولاد و « لا تقتلوه عسى ان ينفعنا او نتخذة ولدا) واستجاب فرعون وجنوده لرجائها ، وابتوا على حياة الفلام « وهم لا يشعرون) بما سيصيبهم على يديه حين يبلغ مبلغ الرجال ، ويكلف بالرسالة « واطصح مؤاد ام موسى فارغا » من شدة القلق على ابنها الذي لم تعد تعرف من امره شيئا ، وبلغت بها شدة قلقها وجزعها جدا « ان كادت » معه « لتبدي به » وتقتشى خبره « لولا ان ربطنا على قلبها » وثبتناها « لتكون من المؤمنين » بأمر الله وتصديقه وصدق وعده ، ولكنها مع ذلك حاولت ان تعرف شيئا من اخباره وتطمئن على حياته « وقالت

نخرج من كل ما سبق بان اللغة العربية التي خرجت من الجزيرة مع الاسلام ، واتامت الحضارة الاسلامية كانت لغة سليمة ناضجة مستوفاة الاساليب لا يعيبها نقص في طبيعتها تحت (ي اسم او شكل ، ولا يعجزها ، كما ثبت ذلك بالدليل التاريخي الحاسم ابان عصر النهضة الاسلامية، ان تعبر بلغة العلم والفلسفة والادب ، وكما تشمل ذلك الآن ، واذن فنظرية العقلية التركيبية ، واللغة التركيبية لم تقدم على أي دراسة حقيقية للغة العربية في كافة انشطتها المختلفة وان الایجاز ليس هو اسلوب العربية الوحيد ، وانما هو اسلوب من اساليبها التي نضجت نضجا كبيرا قبل الاسلام ، الا انه في الوقت نفسه اسلوب يسجل ميزات لهذه اللغة جديرة بالدراسة كما يشكل ظاهرة حضارية جديرة بالدراسة وسنؤجل دراسة شبيهة التركيبية في الشعر والتي يطلق عليها وحدة البيت الى دراسة مفصلة لاسلوب الشعر القديم ، اما الان فنريد ان نقوم بدراسة للايجاز من خلال نصوص نثرية باعتبارها ظاهرة حضارية ، ولما كان القرآن هو النص الموثوق بصحته في باب النصوص النثرية ، كما انه اعتمد على الایجاز كوسيلة أساسية في تعبيره نانا سنقدم هذه الدراسة من خلال نصوص قرآنية منظورا اليها من وجهة نظر لغوية فقط ، وذلك مع الاستعانة في الایجاز بالاجمال والامثال العربية القديمة وحديث الرسول عليه السلام .

الایجاز ودلالته الفكرية :

قلنا ان الایجاز يشتمل على ضربين احدهما الایجاز بالاجمال ، وهو ، كما قلنا ، وضع المعاني الكثيرة في الالفاظ القليلة مع بناء الجملة على حالها واحتفاظها بآركاتها الأساسية والایجاز بالاجمال ليس وقتنا على العربية وحدها وانما هو شائع في اللغات العالمية بما فيها اللغات السامية ، ومن ثم فليس فيه ميزة خاصة يمكن ان تنفرد بها العربية كما انه ليس من السهل استكشاف دلالاته على نوع خاص من التطور اللغوي ، اما الضرب الثاني وهو الایجاز بالحذف فهو الذي يهمننا في هذا المقام وترجع قيمة الحذف في العربية الى ارتباطه الوثيق بفكرة الزمن وتطورها

لاخته قصيه « فخرجت الفتاة تتلمس بحذر أخبار أخيها وتتقصاها ، وانتهى بها المسير الى قصر فرعون ، وانتهزت غفلة من الحراس فدخلت القصر خلصة دون أن يحس بها احد ، وظلت تبحث داخل القصر «نصرت به عن جنب وهم لا يشعرون » ، واستطاعت بحيلتها ونكايتها ان تكسب ثقة اهل القصر فاستبقوها فيه وفرحت بذلك لتكون على مقربة من أخيها (و) لنتم امرا قدرناه وكنا قد « حرمتنا عليه المراضع » من قبل دخولها فلما عرفت بذلك احتالت لترده الى امه « فالتت » لهم « هل ادلكم على اهل بيت ياكلونه لكم وهم له ناصحون » واستجابوا لها ، ودفنوا اليها بالفلام لتسلمه الى هؤلاء الناس (ف) فأخذته الى بيتها و « رددناه الى امه كسى تتر عينها » به « ولا تحزن » لنفقه « ولتعلم ان وعد الله « لها «حق» ووعدنا دائما الحق « ولكن « الناس اكثرهم لا يعلمون » ذلك .. سورة القصص : 31/7

النص الثاني : سورة الرحمن :

انكر يا محمد نعمة الله « الرحمن » الذي من عظيم رحمته بك وبأمتك ان « علم » ك « القرآن » والذي من نعمته ورحمته ان « خلق الانسان » وميزه عن سائر المخلوقات بان « علمه البيان » ، والذي من نعمته ورحمته بهذا الانسان ، جعل حركة « الشمس » الحركة المحسوبة بدقة حياة الاحياء على الارض « والقمر بحسبان » دقيق ، في فلك منتظم ويربط بهذه صغبرها وكبيرها «و» جعل نبات « النجم » الدقيق « والشجر » الضخم « يسجدان » استجابة لهذا الربط الدقيق بين حركة الاملاك وحياة الاحياء «و» من نعمته ورحمته ان بنى « السماء رفعا » بحساب دقيق ، ونظام دقيق « ووضع » لها «الميزان» كي لا تختل حركتها وحركة ما فيها من اجرام وكسي لا يضطرب نظامها فيضطرب معه نظام الوجود كله ، ولم يجعل الله هذا النظام الدقيق وفقا على حركة الاجرام ونظامها فقط ، بل جعله نظاما عاما يشمل كل شيء ، فيجب عليكم ان تراعوا سنن الله في ضبط الكون وبنائه على اصول وقواعد وعليكم «الاتقوا في» هذا «الميزان» وتتجاوزوا حدوده ، فتختل حياتكم بخروجها على هذا النظام الدقيق المحكم « واتقوا » حياتكم على اساس من هذا القانون الصارم قانون « الوزن بالقسط » ولا تتحرّفوا عنه بالهوى بالشهوات متضلّوا عن الطريق المستقيم «ولا» تحيدوا عن هذا القانون الدقيق في معاملتكم للاخرين و « تخسروا الميزان » فبينا لكم

المعتاب ، ويعود هذا الخسر عليكم ، لان قانون الله وحده وسنته لا تتخلف . «و» اعلبوا ان « الارض » التي تعيشون عليها قد « وضعها » الله « للانام » جميعا بلا تفرقة بينهم ، ولا تمييز ، وقد وفر الله للبشر جميعا كل ما يحتاجونه من ضروريات الحياة وكمالياتها فجعل « فيها ناكهة » من شتى الاتواع ، والاشكال ، والاحجام ، والمذاقات «و» جعل فيها « النخل ذات الاكمام » لتاكلوا من ثمره «و» جعل فيها « الحب » على اختلاف انواعه ما تعرفون وما لا تعرفون ليتغذى عليه الانسان «ذو العصف» اي التين ليتغذى عليه الحيوان «و» فيها الى جانب هذه الضروريات التي تقوم بها الحياة كماليات تحلها وتزينها مثل « الريحان » .

هذه هي آلاء الله ونعمه عليكم «فباي» من هذه الـ « آلاء » والنعم التي خلقها « ريكا » والتسى عدنا « تكذبان » وتنكران من ناحية وجودها او من ناحية قيمتها ؟

ولكن هذه النعم وحدها ليست كل مظاهر رحمة الله ، ودلائل قدرته ، فمن مظاهر رحمته ودلائل قدرته ايضا انه « خلق الانسان » بتركيبه العجيب وطاقاته الكثيرة ، وقدرته على التكلم ، والتفكير ، والحركة والعمل « من » شئء تافه حقير هو الـ « صلصال » اليايس الذي لا حياة فيه « كالنخار » الذي تصنعونه من الطين ، « و » من عجائب صنعه انه «خلق الجان» وهو مخلوق لا تستطيعون رؤيته مع انه يتحرك بينكم ، ويعيش معكم « من » شئء تعرفونه جيدا هو «مارج» لهب « من نار ، فباي » من « آلاء ريكا » هذه ومظاهر قدرته « تكذبان » وتنكران وجودا وقيمة ؟

ذلك هو الله « رب » الاملاك الذي يتحكم في حركتها من « المشرقين » ، « ورب » ها الذي يتحكم في حركتها من « المغربين » والذي يحركها في حساب دقيق ، في نظام مرسوم « فباي » من « آلاء ريكا » هذه ومظاهر قدرته « تكذبان » وتنكران وجودا وقيمة ؟

ولكن هذه النعم على عظمتها ، ومظاهر القدرة هذه على ضخامتها ، ليست وحدها كل ما خلق الله و قد « مرج البحرين » المالح والمضب وجعلهما مع اختلاف طبيعتهما «يلتقيان» فلا يجور احدهما على الآخر لان « بينهما برزخ » يفصل بينهما و « لا يبيقان » .

قبضتنا وملكنا بـ « ان تنفذوا من اقطار السموات والارض » بعيدا عن ملكنا وعن سلطاننا « فابعدوا » ولن تستطيعوا ذلك لانكم « لا تنفذون » من ملكنا « الا بسطان » منا « فباي » من « آلاء ربكنا » هذه ومظاهر قدرته « تكذبان » وتكران اعجازا وقدره ؟ انكم لو فكرتم في الخروج من ملكنا وملكتم القدرة عليه فسوف « يرسل عليكم » حينئذ « شواظ من ن نار ونحاس فلا تنتصران » منا « فباي » من « آلاء ربكنا » هذه ومظاهر قدرته « تكذبان » وتكران اعجازا وقدره ؟

فهل بقي لديكم من شك في قدرة الله على احياء الموتى ، وبعثهم ليوم الحساب ، فاذا كان قد بقي لديكم شك في هذا اليوم فانتظروا حتى تعابنوا ذلك بانفسكم ، « فاذا انشقت السماء » ، في هذا اليوم العصيب ، الذي سينتهي فيه هذا الكون « فكانت » السماء في هذا اليوم « وردة » في لونها « كالدهان » المسترج الالوان ، وذلك شيء لا شك فيه « فباي » من « آلاء ربكنا » هذه ودلائل قدرته على البعث والنشور « تكذبان » وتكران شكا وعجبا ؟ في هذا اليوم الذي نحدثكم عنه « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ » منهم الى جهنم حيث مقرهم ومثواهم « بالنواصي والاقدام » « فباي » من « آلاء ربكنا » هذه ودلائل قدرته على البعث والحساب « تكذبان » وتكران شكا وعجبا ؟

في هذا اليوم الذي نحدثكم عنه بنادي المنادي يا ايها المكذبون المنكرون ليوم الدين « هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون » ها هم في داخلها و « يطوفون بينها وبين حميم آن فباي » من « آلاء ربكنا » هذه ودلائل قدرته « تكذبان » وتكران عجا ودهشة ؟

وهذا البصير الذي نحدثكم عنه هو مصير المجرمين « ولين » آمن بهذا اليوم ، وهذا المصير و « خاف مقام ربه » في حياته الدنيا ، وعمل صالحا وفي هذا اليوم العصيب « جنتان » جزاء له على عمله وايمانه « فباي » من « آلاء ربكنا » هذه ودلائل قدرته « تكذبان » وتكران عجا ودهشة ؟ . ان ذلك لا شك فيه هاتان الجنتان « فيهما عينان تجريان » . « فباي » من « آلاء ربكنا » هذه ودلائل قدرته « تكذبان » وتكران عجا ودهشة ؟ وهاتان الجنتان « فيهما » أيضا « من كل ناكهة زوجان » وتوعان لا نوع واحد « فباي » من « آلاء ربكنا » هذه ودلائل قدرته « تكذبان » وتكران عجا ودهشة ؟ كذبوا عجا ودهشة ان شئتم فيومها

« فباي » من « آلاء ربكنا » هذه ومظاهر قدرته « تكذبان » وتكران وجودا وقيمة ؟ وليست هذه فقط كل نعم الله ومظاهر قدرته في خلق هذه البحار ، ووضع النظام ، فقد جعل فيها منافع شتى حيث « يخرج منها اللؤلؤ والمرجان » ما تستعملونه لزينتكم ومتاعكم « فباي » من « آلاء ربكنا » هذه ومظاهر قدرته « تكذبان » وتكران وجودا وقيمة ؟ ولا تغف فائدة البحار بالنسبة لكم عند هذا الحد ، كما ان لله فيها نظاما آخر يدل على عظمة قدرته « وله » دليلا على هذه القدرة السفن « الجوار المنشآت » من صنعكم « في البحر » والتي تجري على ظهر الماء « كالاعلام » اي الجبال « فباي » من « آلاء ربكنا » هذه ومظاهر قدرته « تكذبان » وتكران وجودا وقيمة ؟

هذه هي نعم الله عليكم وهذه هي دلائل عظمته وقدرته تحت اعينكم ولكن كل ما تشاهدونه من خلق عجيب ، ونظام عجيب ، وهذه الارض و « كل من عليها » من مخلوقات « فان » والى زوال « و » لن « يبقى » في نهاية الامر الا « وجه ريك ذو الجلال والاکرام » . « فباي » من « آلاء ربكنا » هذه ومظاهر قدرته « تكذبان » وتكران وجودا وقيمة ؟ هل بقي عندكم من شك في قدرة الله على اخفاء هذه الموجودات بعد ايجادها ، وكيف يكون هناك شك ، وهو ريبا وصاحبها والمصرف لامرها « يسألنه من في السموات والارض » سؤال احتياج لسؤال لسان ، فيعطى كل سائل سؤله ، من نظام ، او حياة ، او رزق . . . الخ ، فنراه « كل يوم هو في شأن » من شؤون الكون الدائم التغيير والتجدد . « فباي » من « آلاء ربكنا » هذه ومظاهر قدرته « تكذبان » وتكران وجودا وقيمة ؟

وان هذا الملك العظيم لا يتصرف الا بأمر الله وحده ، وبمشيئته وحده وكل من فيه خاضع لتصرف الله ومشيئته ، وحين يفنى هذا الكون ، وينتهي أمر تصريفه وتدبيره « سنفرغ لكم آيها الثقلان » لنجازي كلا على عمله ، فلا يصح لكم بعد كل ما ذكرناه ان تشكوا في ان مصيركم اللينا ، ولا تظنوا انكم قادرون على الإفلات من قبضتنا . « فباي » من « آلاء ربكنا » هذه ومظاهر قدرته « تكذبان » وتكران وجودا وقدره ؟

وانى ادعوكم جميعا « يا معشر الجن والانس » على سبيل التحدي « ان استطعتم » الخروج من

« تكذبان » تعالى الله عن ان يكون في كل هذا الذي فكرناه كذب أو بهتان ، « تبارك اسم ربك ذي الجلال والاکرام » وتعالى سبحانه عن الكذب والبهتان ؟

نلاحظ في هذين النصين عدة مسائل :

الأولى : ان الحذف متنوع غاية التنوع ، وانه لا يتقيد ولا ينحصر في انواع بعينها فالمحذوف قد يكون نصا بأكمله كما نلاحظ في حذف المشاهد الكاملة في النص القصصى ، وهذا النوع من الحذف شائع في القصص القرآنى مما يمكن أن يقال معه انه سمة أساسية من سمات فن القصة في القرآن . ان المحذوف قد يكون حرفا وقد يكون جملة ، وقد يكون عدة جمل ، وقد يكون طرفا وقد يكون جاريا ومجرورا او مفعولا به او ضميرا . الخ أى انه ليس هناك من قيد على الحذف ألا ان يخل معنى الكلام او يفقد السياق ترابطه .

الثانية : ان الحذف لا يأتى اعتباطا ، وانما يأتى مقصودا وفق خطة مرسومة .

الثالثة : ان الحذف لا يأتى على الندرة ، وانما يطرد اطرادا و ان الكلام المحذوف قد يكون اكبر حجما ، من الكلام المنطوق .

نستنتج مما سبق : ان الحذف اداة اساسية في تعبير القرآن ، وان الكلام المحذوف قد حل محله بديل اكثر اهمية منه وابلغ تأثيرا مما هو هذا البديل الذي حل محل الكلمة المنطوقة ، واصبح اكثر اهمية منها ؟ يقول عبد القاهر في الحذف « هو باب دقيق المسلك ، لطيف المآخذ ، عجيب الامر يشبه بالسحر فانك ترى به ترك الذكر اتضح من الذكر ، والصمت عن الامامة ازيد للامامة ، وتجذك انطق ما تكون اذا لم تنطق ، واتم ما تكون بيانا اذا لم تبين ، وهذه جملة تد تنكرها حتى تخبر ، وتدفمها حتى تنظر (61) .

ان عبد القاهر رغم ادراكه لاهمية الحذف وخطورته لم يوضح لنا ما هو البديل عن المحذوف ، ان البديل عن المحذوف هو المسافة الزمنية وقد فكرت في مثال كتبه ردا على تعريف المرحوم أمين الخولى للادب بأنه « تعبير عن الاحساس بالحسن ادائه الكلمة»

سترون هؤلاء الذين خانوا ربهم « متكئين على فرش بطائنها من استبرق وبنى الجنتين دان » عليهم ياكلون منه متى شاعوا « نباى » من « آلاء ربكيا » هذه ودلائل قدرته « تكذبان » وتكران عجبا ودهشة ؟ كذبوا عجبا ودهشة ان شئتم بما هو اكثر من ذلك ، فهاتان الجنتان « فيهن » ايضا فتيات رائعات الحسن قد اعدنهن لهؤلاء المؤمنين « قاصرات الطرف ، لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان » . « نباى » من « آلاء ربكيا » هذه ودلائل قدرته « تكذبان » وتكران عجبا ودهشة ؟ كذبوا ان شئتم عجبا ودهشة ولكن هؤلاء الفتيات حقيقة لا شك فيها وهن باهرات الجمال « كانهن الياقوت والمرجان . نباى » من « آلاء ربكيا » هذه ودلائل قدرته « تكذبان » وتكران دهشة وعجبا ؟

ولماذا تكذبون وتعجبون وتدهشون ، وما آتيناكم ذلك الا جزاء علمهم و « هل » يكون « جزاء الاحسان الا الاحسان ؟ » « نباى » من « آلاء ربكيا » هذه ودلائل قدرته « تكذبان » ؟

كذبوا ان شئتم فانا قد اعدنا لهؤلاء المؤمنين الذين خانوا ربهم غير هاتين الجنتين « ومن دونهما » ايضا « جنتان » « نباى » من « آلاء ربكيا » هذه ودلائل قدرته « تكذبان » وتكران عجبا ودهشة ؟ كذبوا ما شئتم فان « فيهما » ايضا « عينان نضاختان » ؟

« نباى » من « آلاء ربكيا » هذه ودلائل قدرته « تكذبان » وتكران عجبا ودهشة ؟ كذبوا ما شئتم ، فهاتان الجنتان ايضا « فيهن خيرات حسان » من مختلف الاصناف والالوان . « نباى » من « آلاء ربكيا » هذه ودلائل قدرته « تكذبان » وتكران عجبا ودهشة ؟ كذبوا ما شئتم فان فيهن ايضا « حور مقصورات في الخيام » « نباى » من « آلاء ربكيا » هذه « تكذبان » وتكران عجبا ودهشة ؟ كذبوا ما شئتم فان هذه الحور « لم يطمثهن انس » من قبلهم . ولا جان « نباى » من « آلاء ربكيا » هذه ودلائل قدرته « تكذبان » وتكران عجبا ودهشة ؟ كذبوا ما شئتم الى ان يأتى هذا اليوم فترون بأعينكم ، المؤمنين « متكئين على رفرف خضر ، وعبقرى حسان » . « نباى » من « آلاء ربكيا » هذه ودلائل قدرته

اما ان الكلمة اداة للتعبير الابسي فذلك ما لا يمكن الاعتراض عليه اذ انه مما لا شك فيه ان للكلمة في التعبير دورا طاعيا يخدمنا عن اداة اخرى لا تقل عنها خطرا وهي المسافة .

فالمسافة اداة للتعبير الابسي تتفاوت اهميتها وتختلف بتفاوت واختلاف القوالب ودرجة الموسيقى في التعبير الا انها لازمة فيها كلها .

والمسافة يعبر عنها في اللغة بالمحذوف وقد يكون هذا المحذوف حرفا او كلمة او جملة ... الخ والحذف يعنى ان احياء المسافة هنا اهم من احياء الكلمة والا لكان الحذف ضربا من العبث (62).

فالمسافة الزمنية اذن هي البديل الذي حل محل الكلمة المنطوقة واصبح اكثر اهمية منها وقد سبق ان لاحظنا ان نضج الاحساس بالزمن قد ظهر واضحا في بنية النعل المضارع ، وما شابهه ، وما نحن مرة اخرى نجد اثر هذا الاحساس بالزمن على اعتبار انه صيرورة يسهم في خلق هذا النوع من التعبير الابسي الذي يمكن ان يعد بحق اخطر ظاهرة من ظواهر التعبير الذي تفرقت بها العربية في القديم ، والذي اخذت تظهر قيمته في (الرواية الجديدة) كما يكتبها نجيب محفوظ في مثل اللس والكلب ، وميرامار والسمان والخريف .. الخ تثيرا بالرواية الجديدة في الغرب .

وسنجد عند دراستنا للشعر انه قد استعمل المسافة الزمنية هذا الاستعمال الواسع الذي استعمله القرآن ، واتخذ منه اداته الاساسية في تشكيل أسلوبه الفني وهذا يعنى ان تصور العرب للزمن باعتباره صيرورة لم يقتصر اثره على مجرد ادراك علاقته بالزمن ، وإنما امتد الى التعبير الفني واستخدم هذا الاستخدام الواسع ، الناضج الممتد ، الذي شاهدنا بعضا من صورته في النصوص القرآنية ونحن لا نقصور ان يستعمل القرآن أساليب غير مألوفة في العربية وغير مألوفة للعرب ، والا لمعجزت

اللغة من الاستجابة لهذا الاسلوب لانه دخيل على تركيبها وخارج حدود امكانياتها من جانب ، ولان العرب ما كانوا ليفهموه لانه يحدثهم بما لا يلفونه من لغتهم وما كانوا ليتأثروا به هذا التأثير العميق الذي استوى بين المؤمن والمشرک من جانب آخر . والذي يؤكد انهم تأثروا باسلوب تفوقوه وهرمونه ، وجاءهم القرآن منه بما يفوت قدراتهم ويعجز شعراءهم . يقول المفيرة « وماذا اتول ! فوالله ما فيكم رجل اعلم بالشعر ، ولا برجزه ، ولا بقصيده منسى ولا باشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا والله ان لقوله لحلاوة وان عليه لطلاوة وانه لمنير اصلا مشرق اسله وانه ليتقول وما يعلى وانه ليحطم ما تحته » (63) ويلج من شدة فتونهم به ان كانوا يتسللون ليلا الى بيت رسول الله يستمعون تلاوة القرآن ، ثم يتلاقون في الطريق متلاومين (64) وحتى منعوا ابا بكر من الصلاة ، والتلاوة في المسجد الحرام ، لانه يفتن بتلوته الناس والاطفال (65) .

ولا يمكن ان يستقر للغة هذا الخط من الصور والتعبير الا اذا كانت قد قطعت مراحل كبيرة في التطور كما سبق ان بينا والا اذا كان اهلها قد اصابوا حفا كبيرا من الوعى والادراك ، وسعة الخيال ، وارهاف الحس .

المسافة الزمنية (الایجاز) فى الشعر القديم (الجاهلى) :

استخدم الشاعر القديم (الجاهلى) المسافة الزمنية (الایجاز) استعمالا واسعا في التنقل بين الامكنة البعيدة ، وفى تضيير المشاهد وفى اختزال التفاصيل وستنكلم عن هذه الاستعمالات فى ایجاز شديد .

التنقل بين الامكنة :

تبدأ المقدمة الطللية بالوقوف احيانا على مجموعة من الاطلال تفصل بينها مسافات شاسعة،

(62) مجلة الادب ، العدد الثامن ، مايو 1958

(63) الوحي المحمدى رشيد رضا ص 108

(64) ابن هشام 315/1 وما بعدها.

(65) ابن هشام 374/373

وقد أريك ذلك الوقوف اللغويين قديما فأخذوا يلتبسون له العلل اللغوية مع الكثير من الاعتساف لانهم لم يتصوروا أن يقف الشاعر على أمكنة متعددة تفصل بينها مسافات شاسعة في وقت واحد ، ولم يصوروا للوقوف صورة أخرى فالتبس الامر عليهم . ونعرض هنا دراسة لوقوف امرئ القيس في معلقته لتوضيح ما ذكرناه ، يقول امرؤ القيس :

تفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحول
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها

لما نسجتها من جنوب وشمال
يفتح امرؤ القيس المشهد (بديالوج) بينه وبين صاحبيه في موقع الحدث بسقط اللوى ، مناديا صاحبيه : قفا هنا بسقط اللوى لنبك على ذكرى حبيب كان في هذا المنزل ، ولكن العرض يتحول من (المشهد المسرحي حيث يجب أن تتوفر وحدة المكان الى المنظر السينمائي) حيث يتحرك الحديث حركة سريعة من مكان الى ثان الى ثالث الى رابع .. من الدخول الى حومل الى توضح الى المقراة وهى المواضع التى ضمت ذكريات الحبيب في تنقله عبر الصحراء ، ومن مرعى الى مرعى ، وقد استشكل امر هذه الحركة السريعة على اللغويين فاتكروها الاصمى ، لانه لا يقال هذا بين زيد وعمرو ، وذهب الى ان الرواية بالواو لا بالفاء اى بين الدخول وحومل وليس بين الدخول فحول على ان التبريزي قد أكد أن الرواية بالفاء هى الرواية الصحيحة ، فقال نقلا عن ابن السكيت « أن رواية الفاء على حذف مضاف والتقدير بين اهل الدخول فحول ، وقال خطاب : انه على اعتبار التعدد حكما ، والتقدير بين أماكن الدخول فحول وهما موضعان » (66) .

وفاتهم أن الحركة في الخيال لا تخضع لقيود الحركة في الواقع ، وأن المرء يستطيع أن يطوف الكرة الأرضية في لحظة من الخيال وهو جالس مكانه لا يريم ، وأن الشاعر لن ينتقل في الواقع الى هذه الأماكن ، وإنما تحرك فيها بخياله ، ولعل بين المكان والمكان عشيرات الاميال ، وفاتهم ايضا ان القرآن الكريم قد استعمل هذا الاسلوب على اوسع نطاق اى اسلوب اختزال المسافات اعتمادا على حركة

(66) شرح التبريزي للملقات ص 50

الخيال التى لا تحدها حدود مقال مثلا : « وقالت لاخته قصيه ... فبصرت به عن جنب » القصص : 11 نفع ان الفاء تنيد التعقيب كما يقولون الا ان القرآن قد استعملها في الانتقال بين امكنة قد تكون المسيرة بينها اياما ، وقد اختزل القرآن الحركة الواقعية التى تستغرق اياما ، بين قول الام قصيه ، وبين بصر الاخت به في مكان بعيد ، وبعد حين من الزمان ، بحركة سريعة في لحظة خيال ، تربت البعيد وكذلك فعل امرؤ القيس ، حمله خياله عبر البراري الشاسعة في لحظة خاطفة من سقط اللوى الى توضح السى المقراة . وكذلك فعل لبيد في معلقته حيث يقول :

عفت الديار محلها فستقامها

بنسى تابد غولها فرجامها

مدافع الريان عرى رسمها

خلقا كما ضمن الوحي سلامها

حيث استخدم المسافة الزمنية في التنقل السريع

بين الغول فالرجام مدافع الريان :

وكذلك فعل زهير في معلقته حيث يقول :

أمن ام اوفى دمنة لم تكلم

بحوماتة الدراج فالمتلم

ودار لها بالمرقتين كاتها

مراجيع وشم في نواشر معصم

لقد استخدم زهير المسافة الزمنية في التنقل

السريع بين الدراج فالمتلم فالمرقتين .

تغيير المشاهد :

استخدم الشاعر القديم المسافة الزمنية فى الانتقال السهل السريع بين مشاهد تفصل بينها فواصل شاسعة في الزمان والمكان ، ولأن الشاعر العربى ادرك مبكرا المسافة الزمنية واستخدمها استخداما فنيا ، فلم يتصور الدارسون المحدثون وجود صلة او روابط بين هذه المشاهد والصور التى تردهم بها القصيدة القديمة (الجاهلية) وقالوا من اجل ذلك ان هذه القصيدة تنقصها الوحدة العضوية لانهم لم يتصوروا الوحدة الا في حدودها المنطقية وما كان يسيه ارسطو وحدة المكان والزمان بالنسبة للحديث الدرامى .

(2) وغداة ربح قد وزعت وقرقر
 إذ أصبحت بيد الشمال زمامها
 بصوح صافية وجذب كرنه
 بموتر تاتاله ابهامها
 بادرت حاجتها. الدجاج بسحرة
 لا على منها حين هب نيامها
 (3) ولقيت حميت الحبي تحبل شكلي
 فرط وشاحي إذ غدوت لجامها
 نعلوت مرتقبيا على ذي هبوة
 عرج الى اعلامهن قتاهما
 حتى اذا التقت يدا في كافر
 وأجن عورات الثفور ظللالها
 اسهلت وانتصت كجذج منيفة
 جرداء يحصر دونها جرامها
 رفعتها طرد النمام وثلة
 حتى اذا سخنت وخف عظامها
 تلتقت رحالتها فاسيل نحرها
 وابتل من زيد الجموم حزامها
 ترقى وتطمئن في العنان وتنحى
 ورد الحمامه إذ اجد حمامها
 (4) وكثيرة غرماؤها مجهولة
 ترجى نوافلها ويخشى ذامها
 غلب تشذر بالدخول كثها
 جن البدي رواسيا اقتدامها
 انكرت باطلها ويسوت بحقها
 يوما ولم يفخر على كرامها

هذه اربعة مشاهد من مجموعة المشاهد التي
 تزخر بها قصيدة لبيد ، ولو ان الشاعر بسط
 تفاصيل هذه المشاهد الاربعة لبلأت عدة صفحات ،
 في المشهد الاول عدة مشاهد لانه مشهد متكرر في
 العديد من الليالي على طول مرحلة طويلة من العمر
 كل ليلة منها مشهد خاص واحداث خاصة وظروف
 خاصة ، وفي مشهد غداة الريح تفاصيل طويلة
 استنفسى عنه الشاعر متى خرج ، وكيف خرج ،
 ومن أين خرج ، ومن قبل ، ومن حدث وماذا فعل
 طوال ليلة السمر وماذا سمع من اغان والحان ، وفي
 مشهد الغارة تفاصيل كثيرة ، من الذي اغار على
 الحبي ، ومتى ، وكيف اغار ، وأين المرقبة التي
 غدا اليها ، وما شاهد خلال هذه الفترة الطويلة الى
 مغيب الشمس .. وهكذا ، وفي المشهد الرابع اين
 هذه الكثيرة الغراء ، مجهولة الطرقات ، وكيف قطع

ولكن الشاعر العربي تنبه قديما الى وحدة
 عضوية اخرى لا تشترط فيها المكان والزمان
 والاحداث ولا يشترط فيها التسلسل والترابط المنطقي
 الذي يلحظه العقل في الحركة الزمنية ، وانما هي
 وحدة تخضع لقانون الذاكرة الانسانية الذي لا يتقيد
 بالوحدة والتسلسل والترابط الذي يلاحظ في الحركة
 ولذلك يلاحظ ان الشعراء العرب كانوا ينتقلون من
 مشهد الى مشهد في القصيدة الواحدة حتى تزدهم
 القصيدة في حيزها الضيق بمجموعة من المشاهد
 اكبر واوسع كثيرا من مساحتها اللفظية ، وعلى
 سبيل المثال فقد تنقل امرؤ القيس في معلقته بين اكثر
 من عشرة مشاهد بينها مسافات شاسعة في الزمان
 والمكان ، فبدأ بالوقوف على الاطلال ، ثم رجع القهقري
 في الزمن وذلك أسلوب سننبه عليه فيما بعد ، ثم تنقل
 في الماضي من مشهد ام الحويرث والرباب الى مشهد
 بدارة جلجل ، الى مشهد ذات الخدر ، الى مشهد
 ناطم ، الى مشهد بيضة الخدر ، الى مشهد الليل ،
 الى مشهد الصيد ، فالطعام ، وأخيرا مشهد الطر ،
 في وحدة مختلفة عن الوحدة المنطقية التي يتصورها
 المحدثون للقصيدة ، وانما هي وحدة وجودية ، وحدة
 الدلالة الوجودية على تبدل الحياة وتداولها بين العمران
 والفتاء ، وبين اللهو والجد وبين المرح والحزن ، وبين
 الحركة والسكون ، وبين الجذب والخصب ، وهي
 وحدة حقيقية نابعة من الملاحظة الدقيقة لسنة التبدل
 والتحول في الوجود الذي لا يستقر على حال ، وهي
 في نفس الوقت وحدة يصنعها قاتون التداعي الخاص
 بالذاكرة الانسانية التي تملك زمنها الخاص الذي
 تجري فيه الاحداث بعد ان تحررت من أسر الحركة
 العامة للزمن ، واصبحت ملكا خاصا للذاكرة تصرفها
 كيف تشاء .

اختزال التفاصيل : تغنى المسامة الزمنية الشاعر
 التقديم عن ايراد تفاصيل المشاهد التي تزحم
 الصورة ، وتحتاج الى بسط لا تحتله القصيدة التي
 يراد لها ان تحفظ في الذاكرة ، وتروى شفاهها جيلا بعد
 جيل ، ولنتأمل هذه المجموعة من المشاهد المتتابعة
 في معلقة لبيد :

(1) بل انت لا تدريين كم من ليلة
 طلق لذيذ لهوها وندامها
 قد بت سابرها وغاية تاجر
 وانيسرت لرفعت وعز مدامها
 اغلى السباء لكل ادكن ناتي
 اوجونة تسدحت ونض ختامها

الطريق إليها ، وفي كم من الزمان ، وكم مكث فيها
ومن قابل ، ومن خاصم ، ومن صاق ، وأي باطل
انكره ، وأي حق باء به ، ومن هم كرامها الذين
لم يفخروا عليه ؟

هذا الأسلوب (التكنيك) الذي استعمله الشاعر
العربي منذ أكثر من ألف وخمسمائة سنة كاسلوب
فنى يحقق له اغراضا متعددة لم يصبح اسلوبا
(تكنيكا) مألوفنا في الاستعمالات الأدبية الا في القرن
العشرين وعلى وجه التحديد بعد اختراع الكاميرا
السينمائية التى نبهت الأدباء الى اسلوب اختزال
المسافات والتفاصيل ، واخذ يدخل الى أسلوب
(تكنيك) ما يسمى بالرواية الجديدة منذ سنوات قليلة ،
وكذلك في ما يسمى بالشعر الجديد (فلم تعد القصيدة
اليوم تخضع لنظام السطور العادية المستطيلة المحشورة
بالكلمات ، وانما أصبح النص يرتقى في ارتياح وبحيوية
فوق الصفحة البيضاء ، وفجوات هنا وهناك ، وكلمة
واحدة في سطر ، وسطر آخر مائل ، وفقرة تأخذ
الشكل الهرمى . وكل هذا لخدمة المعنى و «توصيل»
القصيدة الى القارئ توصيلا شكليا وعلى العين
التى تتابع القصيدة الحديثة السيوم ان تتجول في
مساحة كبيرة ، وتتف عند الفجوات بين الكلمات ،
وتقرأ معنى المساحة الكبيرة ، وتتف عند الفجوات بين
الكلمات ، وتقرأ معنى المساحة الموجودة بين
السطور (67)

الزمان الانساني :

هذا الزمان غير الزمان المقترن بالحركة الكونية
وغير الدهر الدوار ، أي انه زمان خارج الزمان نى
اطراذه المؤلف الذي يغير ويبدل في حركة دائبة ولكنه
زمان انساني خالص ، لا وجود له خارج الذاكرة
الانسانية وخارج العقل الانساني ، ورغم انه زمان
يتتابع من مجرى الزمان الاعلى ، الا انه أصبح زمانا
انسانيا خالصا ، ينعدم ويوجد بانعدام الانسان
ووجوده ، ولقد كانت مفاجأة خالصة لى ان اعثر
على ذلك الزمان في تركيب القصيدة العربية مستعملا
لستعمالا فنيا على اوسع نطاق وذلك قبل ان تعرف
علوم النفس الحديثة هذا الزمان بالكثير من ألف
وخمسمائة سنة ، وقبل أن ينتقل منها حديثا جدا .

الى (السينما) والرواية في الموجة الحديثة ، ويتم
اصطناع هذا الزمن بعلميتين معروفتين في علم النفس
الحديث باسم التداعى والاسترجاع وهو ما تطلق
عليه موجة (السينما) الحديثة الـ (فلاش باك)

والتداعى هو توارد الذكريات في الذاكرة
بصورة غير منطقية تفتقد التسلسل والترابط الزمنى ،
يختلط فيها الحاضر بالماضى البعيد ، وهكذا ، في
منطق خاص بالذاكرة وحدها ، فقد يتذكر الانسان
حادثة مضت عليها عشر سنوات لانه رأى منظرا
امامه أعاد للذاكرة هذه الحادثة القديمة وهذا هو
التداعى الشرطى . وهناك التداعى الحر الذى
يستعمله اليوم اطباء العلاج النفسى في علاج وحل
العقد النفسية ، وفيه يطلب الطبيب من المريض أن
يسترخى تماما ، ويستعرض ذكرياته ، ويسمح
لكل ما يرد على خاطره أن يجرى على لسانه ، وبذلك
تتوارد الذكريات على لسان المريض دون نظام احداث
من الطفولة واحداث من الصبا ، واحداث يختلط فيها
شئ من هذا ومن ذاك ؟ اما الاسترجاع فهو نفس
عملية الرجوع الى الماضى وهو رجوع ارادى ،
يحاول فيه الانسان ان يتذكر شيئا نسيه أو ذكرى
عزيزة ضاعت من ذاكرته ويظل يعود الى الماضى
ويقارنه بالحاضر ثم يعود وهكذا مستمتعا أو متحسرا
حسب ظروفه واحواله .

وقد وجدت هذا الزمن بنوعيه في الشعر القديم
بالتداعى الحر والاسترجاع الارادى ولنقرأ معا قول
أمرئ القيس :

وقفا بها صحبى على مطيهم
يقولون لا تهلك أسى وتجل
وان شنائى عبرة مهراقة
فهل عند رسم دارس من معول
كدابك من ام الحويرث قبلها
وجارتهما ام الرناب بماسل
اذا قابتا تفزع المسك منها
نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل
ففاضت دموع العين منى صباة
على النحر حتى بل دمي محلى
فقد استعمل امرئ القيس العمليتين معا ، قال
له صاحبه كدابك من ام الحويرث قبلها وجارتهما ام

زجلا كان نجاج توضح فوقها
وظباء وجرة مغطا اراهما
حزنت وزيلها المراب كتهما
اجزاع بيثشة اثلها ورضاهما
بل ما تفكر من نوار وقد نكت
وتتلمعت اسبابها وزمامها

وهنا يقول (الزوزنى) : « ثم اضرب عن صفة
الديار ، ووصف حال الاجباب بعد تماها ، واخذ في
كلام آخر من غير ابطال لما سبق ، وبل في كلام الله
تمالى لا تكون الا بهذا المعنى ، لانه لا يجوز منه
ابطال كلامه واكذابه فقال مخاطبا نفسه اي شىء
تفكر من نوار في حال بعدها وتقطع اسباب وصلها

ما قوى منها وما ضعف (68) ، والحقيقة هي
عكس ما ذهب اليه الزوزنى ذلك لانا لو اخذنا بهذا
الاعتبار المنطقي فان الكلام يبطل بمضه بعضا لا
محالة ، لانه ان لم يكن ثبة فائدة من وقفة الاطلال
او عرض مشهد الرحلة كما يقول الشاعر نفسه ،
فان الكلام لا يمكن تبريره منطقيا ، لان ذكر ما له
جدوى منه ضرب من العبث ، وهذا الاسلوب المنطقي
في دراسة القصيدة يفسد سياقاتها الفنية تماما ،
ويقضى على نبض الحياة فيها ولكننا لو فتحنا اسلوب
الدراسة المنطقية تماما ونحن ندرس الشعر القديم او
نتذوقه ، لتكشف لنا جوانبه الفنية الرائعة ، ولعاد
اليه نبض الحياة المخزون فيه ، والشاعر لا يستعمل
هنا السياق المنطقي للامكار المجردة وانما يستعمل
الاسلوب التذكري استملا فنيا يخدم به فرضه في
القصيدة .

ذلك هو الزمان الانشائى او زمان الذاكرة
الانشائية الذي تبه اليه العرب واستعملوه فنيا قبل
(فوكتر) بالف وخمسمائة سنة وقد ظهر الاستعمال
الفنى للزمان اول ما ظهر عند (فوكتر) في شكل تخطيط
بين حالاته المختلفة لكسى يوحى بعدم الاتساق بين
الظواهر ، لكن يدل على ان الزمان الكمى ... زمن
التسلسل والترقيم الذي يعتمد على هذه الالة ذات
الترويض الصلبة انما هو زمن زائف في التجربة
الانشائية .. ثم تابعه في هذا الاستعمال اغلب كتاب
الرواية الجديدة مثل (بروست) و (جويس) و
«فرجينيا وولست» (69) .

(يتبع)

الرياب ببائل فاسترجع فكراما من الماضى ، وفي
الاسترجاع حصلت عملية تداع حر فاختلطت فكراما
في مشهد واحد (اذا تامتا) ولا يمكن ان تكون فكرى
واحدة لشخصين معا في مشهد واحد ، وانما هو
التداعى الحر خلط الاثنين معا في مشهد واحد .

وحين قال له اصحابه :

الا رب يوم لك منهن صالح
ولا سيما يوما بدارة جلجل
استرجع الشاعر مجموعة من المشاهد الغرامية
السابقة في تداع حر تتوارد فيه المشاهد دون ترتيب
مقصود .

ويوم عقرت للعدارى مطيتى...

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة ...

ثم يعود من الماضى الى الحاضر ليجري حوارا
خياليا مع حبيبة جديدة فيه عتاب ولوم :

اناطم مهلا بعض هذا التلل ...

وهكذا يستمر الشاعر في تداع واسترجاع الى
نهاية القصيدة .. وفي معلقة زهير ، يقوم زهير
باسترجاع حديث من الماضى ، ثم يلقى فاصل
الزمن ، فاذا المشهد يجرى في الحاضر كل لم يكن
هناك زمن مضى ، وذلك بكل تفاصيل حركته التى
جرى بها في الماضى فيقول بمصد ان وقد على
الاطلال :

تبصر خليلى هل ترى من ظمائن

تحملن بالعلياء من فوق جرثم

ثم ياخذ في عرض تفاصيل دقيقة لحركة المشهد
الى ان يصل الى مكانه الذي قصد اليه .

ويقف لبيد على اطلال ، فتهيجه الفكرى ،
فيرجع الى الماضى ثم يقطع الاسترجاع في صورة
أربكت اللغويين القدماء ، ويقول بعد الوقوف على
الطلل :

شانتك ظمن الحسى يوم تحلوا

فتكنسوا قطنا تمر خيامها

من كل محنوف يبطل عصبة
زوج عليه كلة وقرامها

68 شرح المعلقات للزوزنى ص 109 .

69 الفكر المعاصر ، الزمن في ادب فوكتر ، سعد عبد العزيز ، العدد الرابع يوليو سنة 1965